

سُورَةُ فَاطِرٍ

مِنْ شُقُوقِ الْعَدَمِ إِلَى خُشُوعِ الْعُلَمَاءِ
تَأَمُّلَاتٌ فِي الْخَلْقِ وَالرِّزْقِ وَالْمَصِيرِ



رَدَّادُ السَّلَامِيِّ

سُورَةُ فَاطِرٍ

مِنْ شُقُوقِ الْعَدَمِ إِلَى خُشُوعِ الْعُلَمَاءِ

تَأْمَلَاتٍ فِي الْخَلْقِ وَالرِّزْقِ وَالْمَصِيرِ

رَدَّادُ السَّلَامِي

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة منهجية

في طريقة قراءة سورة فاطر وبناء تأملاتها

ليست سورة فاطر جولةً عابرة في مشاهد الكون، ولا عرضاً متفرقاً لدلائل القدرة، وإنما هي بناء قرآني متماسك يعيد الإنسان إلى الحقيقة التي تتوارى خلف اعتياده للأشياء: أن الوجود كله مفتقر إلى الله، وأن الله وحده هو الغني الحميد، وأن كل ما في السماوات والأرض يحمل أثر الفاطر، ويشهد بوحدانيته، ويمضي بأمره إلى أجله.

تبدأ السورة بالحمد: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، وتنتهي ببصر الله المحيط بعباده: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا﴾. وبين البدء والختام تتحرك رحلة الإنسان في ملك الله: يُخلق، ويُرزق، ويُمهّل، ويُهدى، ويُبتلى، ثم يرجع إلى ربه حاملاً ما كسب. ومن هنا فإن الخيط الجامع للسورة هو ردُّ الوجود إلى فاطره، وردُّ النعمة إلى واهبها، وردُّ القوة إلى مالِكها، وردُّ

العلم إلى غايته، وردُّ الإنسان إلى فقره ومسؤوليته ومصيره.

وقد قامت هذه القراءة على منهج يجمع بين التفسير والتدبر، من غير أن يخلط بين مقاميهما. فالتفسير يبحث عن المعنى الذي تدل عليه الآية في لغتها وسياقها ونظمها، أما التدبر فينطلق من ذلك المعنى الثابت ليستخرج هداياته الممتدة إلى القلب والحياة. ولذلك لم تكن التأملات محاولةً لابتكار معانٍ منفصلة عن دلالة النص، ولا تحميلاً للآيات رموزاً لا تحتملها؛ وإنما هي إنصات لما تفتحه الألفاظ القرآنية من آفاق نفسية وكونية وإنسانية، مع بقاء المعنى الظاهر أصلاً حاكماً على كل استنباط.

وينتظم المنهج في هذه الرحلة عبر دوائر متكاملة:

أولها: المدخل اللغوي والبياني؛ إذ تُستقبل الآية من ألفاظها الدقيقة، واختياراتها التعبيرية، وانتقالاتها، ومقابلاتها. فليس في القرآن لفظ يؤدي وظيفته مصادفةً؛ والفرق بين الفتح والإرسال، وبين الخوف والخشية، وبين الصراخ والاصطراخ، وبين التوفية

والزيادة، يفتح للقارئ أبوابًا من المعنى لا يبلغها المرور السريع.

وثانيها: **السياق والنظم**؛ فلا تُقرأ الآية جزيرةً مقطوعة عما قبلها وما بعدها. فحديث السورة عن إحياء الأرض يتصل بإثبات النشور، ومشهد اختلاف الألوان يقود إلى خشية العلماء، ووراثه الكتاب تفضي إلى تفاوت الوارثين، ثم إلى دار المقامة. ومن هذا الترابط يتبين أن السورة لا تجمع مشاهد متباعدة، بل تنقل القلب في مسار مقصود: من مشاهدة الخلق إلى معرفة الخالق، ومن المعرفة إلى الخشية، ومن الخشية إلى العمل، ومن العمل إلى المصير.

وثالثها: **البعد الكوني**؛ فقد جعلت السورة الكون كتابًا منظورًا يجاور الكتاب المسطور. الرياح والسحاب والمطر والبحران والجبال والشمس والقمر ليست خلفيةً جمالية للخطاب، بل آيات تقيم الحجة، وتوقظ الدهشة، وتكشف وحدة التدبير. ولهذا لا تقف القراءة عند وصف الظواهر، وإنما تعبر من انتظامها وتنوعها وافتقارها إلى وحدانية فاطرها.

ورابعها: **البعد النفسي والإنساني**؛ فالسورة لا تتحدث عن السماء بعيدًا عن القلب، بل تصل بين الخارج والداخل. الأرض الميتة صورة توقظ الرجاء في إحياء القلوب، وزينة العمل السيئ تكشف كيف يختل ميزان الرؤية الباطنة، وطلب العزة يفضح وجوه الارتهان للمخلوقين، والصرخة في النار تكشف قيمة الزمن الذي يبده الإنسان وهو يظنه فائضًا عن حاجته.

وخامسها: **البعد الإيماني العملي**؛ إذ لا تُترك الآية فكرةً جميلة معلقة في الذهن، بل تُرد إلى أثرها في الحياة. فالإيمان بأن الله فاتح الرحمة يحرر القلب من اليأس، والإيمان بأنه الرازق يحمي الكرامة من الارتهان، ومعرفة عداوة الشيطان تستدعي حراسة المداخل، ووراثه الكتاب تستوجب تلاوته وإقامة هديه، والعلم الحق لا يكتمل حتى يثمر خشيةً وعملاً.

وسادسها: **مركزية الآخرة**؛ فالسورة تنظر إلى الدنيا من جهة نهايتها، وتعيد وزن الأشياء في ضوء المصير. لا تُقاس التجارة بربحها العاجل وحده، بل بما إذا كانت تبور أو لا تبور، ولا يُحكم على القوة من لحظة ظهورها، بل من عاقبتها، ولا يُقاس العمر

بعدد سنواته، بل بما قدّمه صاحبه قبل مجيء الأجل. فالآخرة في السورة ليست ملحقًا بالعقيدة، بل هي الضوء الذي يكشف القيمة الحقيقية لكل شيء.

وتتجنب هذه القراءة ثلاثة منزلقات: الجفاف الذي يحول الآيات إلى معلومات لا تمس القلب، والانفلات التأملي الذي يحمل النص ما لم يدل عليه، والمبالغة الوعظية التي تستبدل التأمل بالصخب. وقد سعت بدل ذلك إلى لغة أدبية خاشعة، تستمد صورها من روح الآية، وتقرّب معناها دون أن تزاحمه، وتخطب وجدان القارئ المعاصر من غير أن تحاكم الوحي إلى أدواق العصر.

ولا تدّعي هذه التأمّلات الإحاطة بأسرار السورة؛ فالقرآن أوسع من قراءة واحدة، وكل تدبر صادق ليس إلا نافذة صغيرة على أفق لا ينتهي. وإنما غايتها أن تعيد إلى القارئ حاسة الدهشة التي تضعفها الألفة؛ فيرى الريح رسولاً مأموراً، والمطر برهاناً على النشور، واختلاف الألوان أثراً من آثار القدرة، والعمر فرصة محدودة، والقرآن ميراً لا مجرد كتاب، والجنة دار المقامة التي تنتهي عند عتبتها رحلة الحزن.

إن سورة فاطر تعيد بناء موقع الإنسان في الوجود: هو مكرّم بالاستخلاف، لكنه ليس مالكا مستقلا؛ مسؤول عن اختياره، لكنه فقير إلى توفيق الله؛ قادر على العمل، لكنه لا يستغني عن المغفرة؛ يعيش فوق أرض ثابتة، لكن ثباتها قائم بإمساك الله؛ ويواصل عمره، لا لاستحقاق ذاتي، بل لأن الحليم أمهله إلى أجل مسمى.

ولهذا فإن السؤال الذي ترافقه هذه القراءة ليس: ماذا قالت سورة فاطر عن الكون فحسب؟ بل: ماذا تصنع معرفة الفاطر في الإنسان؟ كيف تحرره من الخوف والوهم والغرور؟ وكيف تنقله من مشاهدة النعمة إلى الحمد، ومن إدراك القدرة إلى الخشية، ومن وراثة الكتاب إلى السبق بالخيرات، ومن تعب الطريق إلى الشوق لدار لا يمس أهلها نصب ولا لغوب؟

تلك هي الرحلة التي يحاول هذا الكتاب أن يسلكها: أن يبدأ من اللفظ، وينفذ إلى المعنى، ويصل المعنى بالقلب، ثم يرد القلب إلى الحياة؛ حتى لا تكون القراءة عبورا على الآيات، بل عبورا بالآيات من غفلة النفس إلى يقظتها، ومن تشتتها بين الأسباب إلى اجتماعها على مسببها، ومن ضيق العاجل إلى سعة المصير.

فإذا خرج القارئ من السورة وهو أعمق شعورًا بفقره إلى الله، وأشد يقينًا بأن ما يفتح الله من رحمة فلا ممسك لها، وأكثر خشيةً كلما ازداد علمًا، وأصدق قيامًا بحق الكتاب الذي أورثه الله لعباده؛ فقد بلغ التدبر بعض غايته، وصارت سورة فاطر في حياته أكثر من نص يُتلى: صارت عينًا جديدة يرى بها الكون، وميزانًا يزن به نفسه، وطريقًا يعود منه كل شيء إلى فاطره.

مدخل إلى السورة

حين يفتح القرآن عين الإنسان على دهشة الوجود

ثَمَّةُ سورٍ تقودك إلى الله من طريق التاريخ، وسورٌ تقودك إليه من أعماق النفس، وسورٌ تضعك أمام مشاهد القيامة حتى يكاد قلبك يسمع وقعها؛ أمّا سورة فاطر فإنها تأخذ بيدك إلى الله من كل طريق: من انشقاق الفجر، ومن رفرقة الجناح، ومن نزول المطر، ومن اختلاف الألوان، ومن تقلُّب الليل والنهار، ومن حاجة الفقير، وغرور القوي، ووجل العالم، وحسرة المكذِّب، وسكينة المؤمن الذي يعلم أن ما عند الله لا يبور.

إنها سورة توقظ في الإنسان حاسةً كادت تذبل تحت ركام الألفة: حاسة الدهشة.

فالسماء التي تظله كل يوم ليست سقفًا صامتًا، والريح التي تمر على وجهه ليست حركةً عابرة، والرزق الذي يصل إليه ليس نتيجةً آليةً للأسباب، والأجل الذي يمضي نحوه ليس مصادفةً بيولوجية. خلف هذا كله إرادةٌ تدبر، وقدرةٌ تخلق، ورحمةٌ تفتح، وحكمةٌ تمنع، وعلمٌ لا يغيب عنه ديبب نملة في جوف صخرة ولا ارتجافة خوف في صدر إنسان.

ولهذا تبدأ السورة باسم من أسماء الفعل الإلهي: فاطر. والفطر ليس مجرد الخلق، بل هو شقُّ العدم عن أول صورة للوجود؛ ابتداء الشيء من غير مثال سابق، وإخراج الممكن من صمته إلى حضوره. كأن الكون قبل أمر الله كان سرًّا مطويًّا، فلما شاء سبحانه انفتحت أبوابه، وتدفقت منه الألوان والأصوات والأرواح والآفاق.

وسورة فاطر لا تعرض الكون ليكون معرضاً للجمال المجرد، بل تجعله كتاباً مفتوحاً على التوحيد. كل جناح فيه إشارة، وكل قطرة حجة، وكل اختلاف في الألوان آية، وكل نفس تموت شاهد على أن الطريق لا ينتهي عند التراب.

وسنقف في هذه الرحلة عند آيات السورة كلّها، آية آية، لا نتجاوز لفظاً إلا حاولنا الإصغاء إلى دلالاته، ولا مشهداً إلا دخلنا في أفقه، ولا خطاباً إلا بحثنا عن موضعه في القلب والحياة. نبدأ بالمعنى الذي يدل عليه اللفظ والسياق، ثم نفتح منه نوافذ التأمل النفسي والإنساني والكوني، من غير أن نحمل الآية ما لا تحتمل، أو نحول التدبر إلى خيال منفصل عن هداية النص.

فهذه ليست محاولةً لإضافة معنى إلى القرآن، وإنما محاولةٌ لإزالة ما تراكم على القلب حتى يعود قادراً على سماعه.

الفصل الأول

حين انشقَّ العدم عن أجنحة النور

الآيات: ١-٣

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ
رُسُلًا أُولِي أَجْنَحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ ۚ يَزِيدُ فِي
الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (١)

تبدأ السورة بالحمد؛ لأن أول كلمة تليق بمشهد الوجود هي الاعتراف بالجميل.

قبل أن تسأل: كيف خلقت السماوات؟ وقبل أن تتأمل الملائكة وأجنحتها، وقبل أن تفكر في قوانين الخلق وتفاوت الصور والمواهب، تعلّم كيف تقف: قف حامداً. فالعقل الذي يدخل إلى الكون بغير الحمد قد يرى الأشياء ولا يرى المنعم، وقد يكتشف القوانين ويغفل عن واضعها، وقد يعرف كيف تعمل النجوم ولا يعرف لماذا ينبغي للقلب أن يخشع.

والحمد أوسع من الشكر؛ لأن الشكر يكون على نعمة وصلت إليك، أما الحمد فهو ثناء على الله لما هو أهلٌ

له، وصل إليك العطاء أو لم تدركه، انكشف لك وجه الحكمة أو بقي وراء ستار الغيب. إنك تحمده لأن الكمال له، ولأن أفعاله تجري بعلم لا يضل، وحكمة لا تعبت، ورحمة قد تخفى عليك طرقها ولا يغيب عنك أصلها.

ثم يأتي الاسم المهيّب: ﴿فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾.

والفاطر هو المبتدئ للخلق، الذي شقَّ ظلمة العدم فأخرج منها هذا الوجود المترامي. لم يكن بين يديه نموذج يقلِّده، ولا مادة قديمة يعيد تشكيلها؛ بل أراد فكان، وقدّر فانتظم، وأبدع فامتألت الآفاق بما لا يحصيه الإنسان من الصور والطبائع والألوان.

كم يبدو الإنسان صغيراً حين ينظر إلى السماء، لكنه يصبح أشدَّ ضالّة حين يتذكر أن هذه السماء لم تكن، ثم فطرها الله! إن العقل يستطيع أن يتابع شيئاً وُجد، لكنه يقف واجماً عند عتبة البدء: كيف ينبثق الوجود من غير وجود؟ كيف يخرج الزمان حين لم يكن هناك زمان؟ وكيف تُرسم للكون حدوده حين لم يكن هناك مكان؟

هنا تصل اللغة إلى مقام السجود أمام المعنى؛ فلا تملك إلا أن تقول: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾.

وبين السماوات والأرض عالمٌ لا تراه العين، لكنه ليس أقلَّ حضورًا في تدبير الله: ﴿جَاعِلِ الْمَلَائِكَةَ رُسُلًا﴾. إنهم رسل بين السماء والأرض، يحملون ما يأمر الله به، وينفذون ما يوكل إليهم، لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون.

وذكر الملائكة بعد فطر السماوات والأرض يكشف للإنسان أن الوجود لا ينحصر فيما تراه حواسه. ليست الحقيقة هي الجزء المرئي منها فقط. إن وراء حجاب الحس عالمًا من خلق الله؛ عالمًا مطيعًا، طاهرًا، دائب الحركة بأمره. وما أضيق الإنسان حين يظن أن ما لا تلتقطه عيناه غير موجود! إنه يريد أن يحبس الوجود كله داخل نافذة صغيرة اسمها الحواس، بينما القرآن يفتح له الجدران على الغيب.

﴿أُولِي أُنْحَاةٍ مَّتْنَى وَثَلَاثَ وَرُبَاعٍ﴾.

إنها أجنحة حقيقية تليق بخلق الملائكة، لا نعرف كيفيتها ولا نقيسها على أجنحة المخلوقات التي نراها؛ فلكل عالم خصائصه، والله أعلم بخلقه. وقد أخبرنا عنها لنؤمن، لا لنتكلف رسم حقيقتها في أوهامنا.

وفي تنوع الأجنحة لفئة إلى أن الكمال في الخلق لا يعني التماثل. بعضهم ذو جناحين، وبعضهم ذو ثلاثة، وبعضهم ذو أربعة، ويزيد الله في خلقه ما يشاء. فالتفاوت ليس خللاً في لوحة الوجود، بل بعض جمالها؛ إذ لا تقوم الحكمة على نسخ صورة واحدة، وإنما على توزيع الخصائص بحسب الوظائف والمقامات.

﴿يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ﴾.

يا لسعة هذه العبارة! لقد تركت باب القدرة مفتوحاً؛ فلا يستطيع خيال أن يحيط بما خلق الله، ولا بما يمكن أن يزيده في خلقه. يزد قوة، أو جمالاً، أو علماً، أو بسطةً في الجسم، أو رقةً في الروح، أو موهبةً في البيان، أو قدرةً على الاحتمال، أو خصيصةً لم تخطر للبشر على بال.

وما نعرفه من الخلق ليس إلا هامشاً ضئيلاً على كتاب لا تزال صفحاته ممتدة وراء مداركنا. كلما ظن الإنسان أنه بلغ نهاية الصور، أراه الله في بحر أو سماء أو خلية أو مجرة ما يعيد إلى عقله تواضعه الأول.

وقد يهب الله إنساناً زيادةً لا يراها الناس: قلباً أكثر احتمالاً، بصيرةً تنفذ خلف المظاهر، لساناً يقع كلامه في موضعه، رحمةً تتسع لآلام الآخرين. وليست الزيادات كلها مما يُعرض في الأسواق أو يُقاس بالأرقام؛ فلربّ إنسان قليل الحظ من الدنيا، لكنه يحمل في صدره من النور ما لو وُزّع على جماعة لأضاءها.

وَتُخْتَمُ الْآيَةُ بِمَا يَسْنَدُ هَذِهِ الْآفَاقَ كُلُّهَا: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾. فما دامت القدرة له، فلا تجعل معرفتك المحدودة مقياساً لما يمكن أن يفعله. لا تقل: كيف يأتي الفرج وقد أغلقت الأبواب؟ فإن الذي فطر السماوات والأرض لا يحتاج إلى باب صنعه البشر. ولا تقل: كيف ينهض القلب بعدما مات فيه الرجاء؟ فإن الذي يخرج الحي من الميت قادر على أن يشق في صخرة اليأس نبعاً.

المستحيل كلمة تصف عجز المخلوق، لا قدرة الخالق.

﴿مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾
(٢)

من اتساع السماوات تنتقل الآية إلى ضيق الإنسان؛ إلى تلك اللحظة التي يقف فيها أمام باب مغلق، يطرق الأسباب فلا تجيب، ويستنفد الحيل فلا تثمر، ويشعر كأن الكون قد ضاق حتى لم يبق فيه موضع لخطوة واحدة.

هناك تأتي الآية لا لتخبره أن الأبواب كثيرة، بل لترده إلى صاحب الأبواب: ﴿مَا يَفْتَحُ اللَّهُ﴾.

فالفتح الحقيقي يبدأ من الله. قد يأتيك عبر إنسان، أو فرصة، أو سبب مألوف، لكنه لم يبدأ من هناك؛ بدأ من إرادة في السماء، ثم تحركت لها الأشياء في الأرض.

واختار القرآن كلمة ﴿رَحْمَةٍ﴾ نكرة لتتسع لكل صور الرحمة. فالمطر رحمة، والعافية رحمة، والعلم

رحمة، والزوج الصالح رحمة، والصديق الصادق رحمة، والسكينة في ساعة الفزع رحمة. وقد يكون المنع نفسه رحمةً مؤجلةً الفهم؛ يحجز الله عنك ما تحب لأنه يرى العاقبة التي لا تراها، وينقذك من طريق كنت تظنه النجاة.

﴿فَلَا مُمْسِكَ لَهَا﴾.

إذا فتح الله نافذة الرحمة، عجزت جدران العالم عن حجب نورها. قد يجتمع الناس على حرمانك، فيأتيك العطاء من ثغرة لم يروها. وقد تتواطأ الظروف على إتعابك، فيسكب الله في قلبك من الطمأنينة ما يجعل العاصفة تدور خارجك ولا تدخل إليك.

رحمة الله ليست ضعيفةً حتى تحتاج إلى إذن من أحد، ولا فقيرةً حتى تنفذ خزائنها، ولا تائهةً حتى تخطئ عنوانك. إذا كتبها الله لك، قطعت إليك المسافات، وعبرت الحواجز، وجاءتك في الوقت الذي اختارته حكمته، وإن بدا لك أنها تأخرت.

﴿وَمَا يُمْسِكَ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ﴾.

وهذه هي الجهة الأخرى من الحقيقة. فكما لا يستطيع أحد إغلاق ما فتح الله، لا يستطيع أحد فتح ما أمسكه. قد تملك مفاتيح الأرض كلها ولا يفتح لك ما لم يأذن به رب الأرض. قد تجتمع القدرة والمال والعلاقات والخبرة، ثم تبقى النتيجة معلّقة؛ ليعلم الإنسان أن السبب ليس إلهاً، وأن امتلاك الوسيلة لا يعني امتلاك القضاء.

لكن الإمساك الإلهي لا يفهم منفصلاً عن ختام الآية: ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾. فهو عزيز لا يُغالب؛ فلا يقع في ملكه ما يكرهه قهراً. وهو حكيم لا يعبث؛ فلا يفتح بلا حكمة، ولا يمسك بلا حكمة.

العزة تمنعك من التعلق بغيره، والحكمة تمنعك من إساءة الظن به.

وقد يوجعك الإمساك لأنك ترى اللحظة ولا ترى القصة كاملة. ترى الباب المغلق، ولا ترى الهاوية التي كانت خلفه. تبكي على أمنية لم تقع، ولا تعلم أن وقوعها ربما كان سيأخذ منك ما هو أعز منها. إن حكمة الله لا تُقاس بمقدار موافقتها لرغبتك الآنية؛ فربما أحببت ما يفسدك، وكرهت ما يصنعك.

ومن فقه هذه الآية تحرر قلبه من عبودية الخلق. يشكر من أحسن إليه، لكنه لا يراه مصدر الرحمة. ويبذل الأسباب، لكنه لا يسجد لها في باطنه. ويطلب من الناس ما يقدرون عليه، لكن رجاءه الأعلى يبقى معلقاً بمن إذا فتح لم يمسك أحد، وإذا أمسك لم يرسل أحد.

وهكذا يتحول التوحيد من قضية تُناقش إلى طمأنينة تُعاش.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ۚ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ۚ فَآئِنِ تُؤْفَكُونَ﴾ (٣)

لم يقل الخطاب: يا أيها المؤمنون، بل قال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾؛ لأن النعمة أقدم من اختلاف البشر، وحنة الخلق قائمة على الجميع. قبل أن ينقسموا إلى مؤمن وكافر، كانوا جميعاً مخلوقين، وكان الهواء يدخل صدورهم بإذن واحد، وكانت الأرض تحملهم، والسماء تظلمهم، والشمس تصل إلى بيوتهم بلا تمييز.

﴿اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾.

ليست المشكلة أن النعمة غائبة، بل أن الذاكرة غافلة. فالإنسان يعيش وسط فيضان من العطاء، ثم لا يشعر إلا بما ينقصه. ينسى آلاف النعم الحاضرة لأن أمنيّة واحدة تأخرت. يرى الباب المغلق ولا يرى البيت الذي يسكنه، ويحزن على ما فاته ولا يتأمل ما بقي له.

والذكر هنا ليس حركة لسان فحسب؛ إنه إعادة الأشياء إلى مصدرها. أن تنظر إلى الخبز فتري وراءه أرضًا ومطرًا وشمسًا وأيديّ وقوى سخرها الله. وأن تنظر إلى جسدك فتري أجهزة تعمل في صمت، لم تصنعها ولم توقّع معها عقدًا لتواصل عملها. وأن تستيقظ فتفهم أن يومًا جديدًا لم يكن حقًا مستحقًا لك، بل نعمة استؤنفت.

كثير من النعم لا نعرف أسماءها، لأن الله يدفع بها عنا أشياء لم تقع. وكم من بلاء غير طريقه قبل أن يبلغنا، وكم من خطر مرّ قريبًا ولم نسمع خطاه، وكم من شرّ صرفه الله فلم يدخل في سجل ذاكرتنا؛ لأننا لا نتذكر إلا ما وقع، أما ما مُنع عنا فلا نراه.

ثم يضع القرآن السؤال الذي لا يحتاج إلى تعقيد: ﴿هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ؟﴾

من الذي ينزل الماء؟ ومن الذي شقَّ للحبة طريقها في التراب؟ ومن الذي أودع في الأرض عناصرها، وفي الشمس حرارتها، وفي النبات سرَّ تحولهِ إلى غذاء؟ قد يزرع الإنسان، لكنه لا يخلق خاصية الإنبات. وقد يحفر القناة، لكنه لا ينشئ الماء. وقد يصنع الدواء، لكنه لا يودع الشفاء في الجسد.

إن الإنسان يرتب بعض الأسباب التي سبقته، ثم يفتتن بترتيبه حتى ينسى خالق الأسباب كُلِّها.

والرزق من السماء والأرض يشمل دورة الوجود التي يعيش الإنسان داخلها. ينزل الماء من فوق، فتتحرك الحياة من تحت، وبين النزول والخروج تمتد يد القدرة في تفاصيل يعجز البشر عن إحصائها. وما الأسواق والمصانع والوظائف إلا قنوات صغيرة في نهر الرزق الكبير؛ فإذا تعلَّق القلب بالقناة ونسي النهر، عاش مذعورًا كلما تغير مسارها.

﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾.

ليست هذه الكلمة نتيجةً منفصلة عما سبق، بل هي الثمرة الضرورية له: ما دام لا خالق غيره، ولا رازق على الحقيقة سواه، فلا يستحق العبادة إلا هو. فالتوحيد ليس فكرة معلقة في الذهن؛ إنه الوفاء العقلي والروحي لمن منحك أصل الوجود، ثم أمدَّ وجودك لحظةً بعد لحظة.

﴿فَأَنّى تُؤَفَّكُونَ﴾.

إلى أين تُصرفون عن هذه الحقيقة وهي تحيط بكم من كل جانب؟ كيف يضل العقل عن الله، وكل شيء يدل عليه؟ كيف يأكل الإنسان من رزقه، ويسكن أرضه، ويتنفس هواءه، ثم يمنح ولاء قلبه لغيره؟

إن الضلال هنا يبدو انقلابًا في اتجاه الروح؛ كأن الإنسان يدير ظهره للشمس ثم يسأل: أين الضوء؟

وهكذا تضع الآيات الثلاث الأولى أساس الرحلة كلّها: الله هو الفاطر، وهو الفاتح، وهو الرازق. خلق الوجود، وفتح أبواب الرحمة فيه، وأمدَّ كل حي بما يقيمه. فمن عرفه فاطرًا، لم يستعظم عليه مستحيلاً؛

ومن عرفه فاتحًا، لم ييأس عند باب مغلق؛ ومن عرفه رازقًا، لم يبيع كرامته خوفًا من بشر.

إنها ثلاث نقلات تحرر الإنسان من ثلاثة سجون: من سجن المادية التي لا ترى وراء الكون خالقًا، ومن سجن اليأس الذي يظن الأبواب بيد الناس، ومن سجن الخوف الذي يتوهم أن رزقه معلق برضا المخلوقين.

وبعد أن يثبت القرآن في القلب هذه الأصول، سينقله إلى ألم الرسول أمام التكذيب، وإلى العدو الذي يزيّن الغرور، وإلى الريح التي توقظ الأرض بعد موتها؛ ليكشف أن العالم الخارجي والنفس الداخلية يسيران معًا نحو حقيقة واحدة: أن العزة لله، وأن المصير إليه، وأن الحياة كلّها لا تُفهم إلا حين تُقرأ في ضوء الآخرة.

الفصل الثاني

بين وَعْدِ اللَّهِ وَزِينَةِ الغرور

الآيات: ٤-٨

﴿وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ ۖ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ (٤)

ليس أشدَّ على صاحب الحقيقة من أن يقدِّم للناس نورًا فيتهموه بأنه جاءهم بظلام، وأن يحمل إليهم النجاة فيروا فيها خطرًا، وأن يخاطب فيهم موضع العقل فلا يجيبونه إلا بصخب العناد. إن التكذيب لا يصيب الكلمات وحدها؛ بل ينفذ أحيانًا إلى نفس الداعية، فيجعله يتساءل في مرارة: لماذا لا يرون ما أراه واضحًا؟ وكيف تجتمع أمامهم دلائل الحق ثم يختارون عنها العمى؟

فيأتي الخطاب إلى النبي ﷺ مواسيًا ومثبِّتًا: ﴿وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ﴾.

لم تقل الآية: إن كنت قد أخطأت في البيان، أو قصرت في إقامة الحجة، بل ردتَّ التكذيب إلى طبيعته

التاريخية المتكررة؛ فرفض الحق ليس دليلاً على غموضه دائماً، كما أن كثرة الرافضين ليست برهاناً على بطلانه. قد يكون النور ظاهراً، لكن العين قد أثرت إغماض أجفانها؛ لأن الرؤية تكلفها أن تغيّر الطريق.

﴿فَقَدْ كَذَّبْتَ رَسُولٌ مِّن قَبْلِكَ﴾.

هنا لا يعود النبي ﷺ وحيداً في ساحة الألم؛ فمن وراء الزمن تمتد قافلة طويلة من الأنبياء، يحمل كل واحد منهم جرح التكذيب نفسه. نوح ينادي قومه ليلاً ونهاراً فلا يزيدهم نداؤه إلا فراراً، وإبراهيم يُلقى في النار، وموسى يواجه طغيان فرعون وعناد بني إسرائيل، وعيسى تحيط به المكائد؛ لكن الرسالة تظل تمضي، لأن الحق لا يستمد بقاءه من تصفيق الناس.

إن الآية لا تلغي ألم التكذيب، ولكنها تضعه في سياقه الكبير. وما يوضع في سياقه يصبح أقدر على الاحتمال. فالمحنة التي يتوهم الإنسان أنها استهدفته وحده قد تكون طريقاً سبقته فيه أقدام الأبطال. وكم يخفُّ وجعك حين تعرف أنك لا تعبر وادياً مجهولاً، بل تسير في درب مرّت به قوافل النبوة!

وفي قوله: ﴿رُسُلٌ﴾ تنكير يحمل معنى الكثرة؛ كأن التكذيب كان ظلًّا ثقیلاً لازم الرسالات في سيرها بين الناس. فالحقيقة حين تدخل مجتمعات استقرت على الباطل لا تُستقبل دائماً بالورود؛ لأنها لا تأتي لتجمل القيد، بل لتكسره، ولا تأتي لتمنح الأهواء أسماءً محترمة، بل لتعيد الإنسان إلى ميزان ربه.

ثم تنتهي الآية بالحقيقة التي تردُّ الفوضى كلّها إلى مركزها: ﴿وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾.

قد تبدو الأمور الآن مبعثرة: مكذب يعلو صوته، ومؤمن يضيق عليه الطريق، وباطل يملك القوة، وحق لا يملك إلا كلمته. لكن هذه ليست الصورة الأخيرة. هناك رجوع حتمي إلى الله، وعند الرجوع تنكشف الأوزان الحقيقية، وتسقط مقاييس الأرض التي رفعت وضيعاً ووضعت كريماً.

وإلى الله ترجع الأمور، لا إلى الذين امتلكوا المنابر، ولا إلى الذين كتبوا الرواية المنتصرة لأنفسهم، ولا إلى الذين ظنوا أن سلطان اللحظة يملك أن يعيد تشكيل الحقيقة. إنهم جميعاً عابرون، أما الحكم الأخير فلمن لا يخفى عليه شيء.

وفي هذه الخاتمة راحة للعاملين للحق: عليك البلاغ، وليس عليك أن تفتح القلوب بيدك؛ لأن القلوب ليست من صناعتك. ازرع الكلمة صادقة، ثم دع لها موعدها الذي يعلمه الله. فقد تُكذَّب اليوم، ثم تنبت كلمتك غداً في قلب من لم يولد بعد. وقد يرفضك جيل كامل، ثم يأتي جيل آخر فيجد في أثرك طريقه.

الحق لا يموت حين يُكذَّب؛ إنما يُمتحن صدق حامله: أكان يعبد الله، أم كان يعبد استجابة الناس له؟

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغُرُورُ﴾ (٥)

مرة أخرى يجيء النداء واسعاً: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾؛ لأن القضية ليست شأن طائفة دون أخرى، بل هي قضية الإنسان منذ أن فتح عينيه في الدنيا إلى أن يغمضهما عند باب الآخرة.

﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾.

والوعد هنا يشمل ما وعد الله به من بعث وحساب وجزاء ونصرة للحق وعاقبة للمتقين. إنه حق لا يتوقف وقوعه على تصديق أحد؛ فالشمس لا تفقد ضوءها لأن أعمى أنكرها، والآخرة لا تتأخر لأن الغافلين استبعدوها.

لكن لماذا يحتاج الإنسان إلى هذا التوكيد؟

لأن الدنيا قريبة، ووعد الآخرة يبدو للغافل بعيداً. العين ترى المال ولا ترى الجزاء، وتلمس اللذة ولا تلمس عاقبتها، وتشاهد الظالم في قوته ولا تشاهد اللحظة التي يُسأل فيها عن قوته. فتتقدم شهادة الحس، ويتراجع خبر الوحي في القلب، حتى يصبح العاجل عند الإنسان أصدق من الآجل، مع أن العاجل هو الزائل، والآجل هو الباقي.

ولذلك لم يقل: إن وعد الله سيصير حقاً؛ بل قال: ﴿حَقٌّ﴾. فهو حق الآن، وإن لم يأت ميعاده بعد. إن عدم وقوع الشيء في لحظتك لا يعني أنه غير موجود في تقدير الله. فالفجر حق وهو لا يزال خلف الليل، والثمر حق وهو مستتر في البذرة، والقيامة حق وإن كانت عيوننا لم تر انشقاق السماء.

﴿فَلَا تَعْرَتَكُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾

لم يقل: فلا تعيشوا الدنيا، ولا فلا تعمروها، ولا فلا تفرحوا بطيباتها؛ إنما نهى أن تعرّنا. والمشكلة ليست في أن تكون الدنيا في اليد، بل في أن تتسلل من اليد إلى القلب حتى تقنعه بأنها النهاية.

غرور الدنيا أنها تعرض وجهها الحاضر وتخفي نهايتها. تريك الزهرة ولا تريك ذبولها، والشباب ولا تريك انحناء الظهر، والقصر ولا تريك اللحظة التي يخرج منها صاحبه محمولاً، والسلطان ولا تريك يوم يصبح فيه المتبوع وحيداً لا يسمع حوله إلا وقع الحساب.

إنها لا تكذب عليك بالكلمات، بل تكذب عليك بنقص المشهد. تعرض مقطعاً قصيراً من القصة وتوهمك أنه القصة كلها.

وقد يغتر بها الفقير كما يغتر بها الغني. يغتر الغني حين يظن أن ما بين يديه باقٍ، ويغتر الفقير حين يظن أن امتلاك ما في يد الغني هو النجاة. كلاهما جعل الدنيا أكبر من حجمها: هذا عبدها بما ملك، وذاك عبدها بما تمنى.

والدنيا مأخوذة من الدنو؛ فهي الأقرب زمناً، وقيل من الدناءة بالنسبة إلى الآخرة؛ لكن قربها هو سر فتنها. فالإنسان يستجيب غالباً لما يصرخ في حاضره، وينسى ما يأتيه صامتاً من مستقبله. يبيع سنوات من السلام الداخلي مقابل لذة عاجلة، ويقايض كرامته بمصلحة تمر، ويهدم آخرته ليبنى لحظة لن تسكن معه طويلاً.

ثم يأتي التحذير الثاني: ﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ﴾.

والغرور هو الشيطان؛ لأنه بلغ الغاية في التغرير. وإذا كانت الدنيا تغرُّ بما تعرضه، فإن الشيطان يغرُّ بما يهمس به. لا يقول للإنسان دائماً: اكفر بربك؛ فهذه خطوة قد ينفر منها، بل يقول له: إن الله غفور، فلا بأس أن تتماذى. تب غداً. لا يزال العمر طويلاً. قلبك طيب وإن فسد عملك. وغيرك أشد منك سوءاً.

إنه لا ينكر صفات الله، بل يحاول استعمال بعضها في غير موضعها؛ يفصل الرحمة عن العدل، والمغفرة عن التوبة، والرجاء عن العمل، حتى تتحول حسنات الظن المزعومة إلى ستار للإقامة على الخطيئة.

وما أبعد الفرق بين الرجاء والاعتذار! الرجاء يدفعك إلى الله، أما الاعتذار فيمنحك راحة زائفة وأنت تبتعد عنه. الرجاء يبكي من التقصير ويعمل، والغرور يضحك من التحذير ويسوّف. الراجي يرى سعة الرحمة فيطرق بابها، والمغرور يتحدث عن سعة الرحمة وهو مولٍ عنها.

ولهذا جمعت الآية بين حقيقتين: وعد الله حق، والدنيا غرور. فإذا اختل ترتيب هاتين الحقيقتين في القلب، عامل الإنسان الوعد كأنه خيال، وعامل الدنيا كأنها الحقيقة الوحيدة.

﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ (٦)

لا يكفي أن تعرف أن الشيطان عدو؛ فكم من إنسان يعرف عدوه ثم يفتح له الأبواب! ولذلك لم تكتف الآية بإعلان العداوة، بل أمرت بموقف عملي: ﴿فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾.

عاملوه كما يعامل العاقل عدوًّا لا ينام. لا تصدقوا وعوده، ولا تأمنوا مداخله، ولا تستهينوا بخطواته الأولى. فالحرب التي لا يعترف أحد طرفيها بوجودها يُحسم أكثرها قبل أن تبدأ.

والشيطان عدو قديم، لكن أخطر ما فيه أنه لا يأتيك في صورة العدو. لو جاءك بقبح غايته لنفرت منه، لذلك يزيّن الطريق ويخفي نهايته. يضع على السم غلاف اللذة، وعلى الجبن اسم الحكمة، وعلى البخل اسم التدبير، وعلى الكبر اسم عزة النفس، وعلى الحسد اسم الغيرة للحق، وعلى الانتقام اسم الانتصار للكرامة.

إنه ماهر في تغيير أسماء الأشياء؛ لأن المعصية إذا بقيت باسمها الصحيح فضحت نفسها.

وقد يُدخل الإنسان إلى الشر من باب خير لم يضبطه الوحي: يغريه بالكلام في الناس باسم النصيحة، وبالفاظظة باسم الصراحة، وبالتعصب باسم الولاء، وبطلب العلو باسم خدمة الدين. وكلما كان الإنسان صالح النية ولم يكن بصيرًا بمداخل نفسه، حاول الشيطان أن يجعل من فضيلته نفسها ثغرةً إليه.

﴿إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ﴾.

لِلشَّيْطَانِ حِزْبٌ، لكن الانضمام إليه لا يحتاج إلى بطاقة معلنة. يكفي أن يتبع الإنسان خطواته حتى يصير في صفه وإن أنكر ذلك بلسانه. وحزبه هم الذين قبلوا دعوته، وآثروا وسوسته على هداية ربهم، وجعلوا الهوى إمامًا والعقل خادمًا له.

وَالشَّيْطَانُ لَا يَمْلِكُ أَنْ يُجْبِرَهُمْ؛ إِنَّمَا ﴿يَدْعُو﴾. يوسوس ويزين ويعد، ثم يترك للإنسان أن يخطو. وهذه الكلمة تقيم مسؤولية الإنسان؛ فلا يستطيع يوم القيامة أن يلقي جرمه كله على الشيطان. لقد دعاه الشيطان، لكن الله دعاه أيضًا؛ دعاه الشيطان إلى النار، ودعاه الله إلى المغفرة والجنة. وبين الدعوتين اختار.

﴿لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾.

هذه هي الغاية التي يخفيها العدو تحت كل الزينة. لا يريد متعتك، وإن زين لك المتعة؛ ولا يريد حریتك، وإن سمى المعصية تحرراً؛ ولا يريد سعادتك، وإن أغراك باللذة. يريد أن تنتهي معه إلى السعير.

إنه لا يكتفي بأن يوقعك في ذنب؛ بل يريد أن يجعل الذنب موطناً، والإصرار عادة، والقسوة طبيعة، حتى يفقد القلب قدرته على الرجوع. يبدأ بخاطر عابر، ثم يطلب خطوة، ثم يحول الخطوة إلى طريق، والطريق إلى هوية، حتى يستوحش الإنسان من الطاعة كما كان يستوحش من المعصية.

فاتخاذَه عدواً يبدأ من حراسة البدايات. فالحرائق الكبرى كانت شرارة، والسقوط البعيد كان خطوة أهملها صاحبها. لا تحاور كل وسوسة طويلاً؛ بعض الأفكار لا تستحق المناقشة، بل تستحق إغلاق الباب.

﴿الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ (٧)

بعد بيان الدعوتين تأتي النهايتان. فلا تمضي الخيارات في هذا الوجود بلا عواقب، ولا يستوي من استجاب للشيطان بمن استجاب للرحمن.

﴿الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾.

الكفر ليس رأيًا باردًا لا أثر له؛ إنه قطع للصلة التي تصل المخلوق بخالقه، وجود للحقيقة التي قامت عليها السماوات والأرض. وحين يكفر الإنسان لا يضر الله شيئًا، لكنه يهدم في نفسه مركز المعنى، ثم يعيش موزع الولاء بين آلهة صغيرة: شهوة تأمره، وخوف يقوده، ومصلحة تغيّر وجهه، وبشر يملك عنده المنع والعطاء.

وجاء العذاب ﴿شَدِيدٌ﴾؛ لأن الجريمة لم تكن نقصًا يسيرًا، بل إعراضًا عن أعظم حقيقة، بعد أن أحاطت دلائلها بالإنسان من داخله وخارجه.

وفي الجهة الأخرى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾.

لم يفصل القرآن بين الإيمان والعمل؛ لأن الإيمان الذي لا يترك أثرًا في السلوك دعوى لم يكتمل صدقها. الإيمان حياة تدخل القلب، والعمل الصالح هو حركتها في الجوارح. فإذا أضاء المصباح ولم ينتشر منه ضوء، فثمة ما يحجب نوره.

والعمل الصالح هو الذي صلح في نفسه بإخلاصه وموافقته لهدي الله، وأصلح شيئًا حوله. صلاة تعيد ترتيب القلب، وصدقة تجبر كسرًا، وكلمة ترد إنسانًا عن اليأس، وعدل يمنع الظلم، وصمت يحفظ عرضًا، ولقمة حلال تصون أسرة، وصبر يمنع الألم من أن يتحول إلى معصية.

ثم قال: **(اللَّهُمَّ مَغْفِرَةً وَأَجْرٌ كَبِيرٌ)**.

قدّم المغفرة على الأجر؛ لأن المؤمن، مهما عمل، يظل محتاجًا إلى أن يُمحي نقصه قبل أن يُمنح جزاءه. العمل الصالح لا يجعل صاحبه مستغنيًا عن الرحمة؛ بل يجعله أشد معرفة بحاجته إليها. كلما اقترب من الله رأى عيوب نفسه أوضح، كما يكشف الضوء الدقيق ما لم يكن ظاهرًا في العتمة.

المغفرة تمحو ما يؤلم، والأجر الكبير يمنح ما يُفرح. الأولى نجاة من الماضي، والثاني كرامة في المستقبل. وكأن الله لا يكتفي بأن يطهر صحيفتهم من السواد، بل يملؤها بعد ذلك بالنور.

ولم يحدد الأجر، بل وصفه بأنه **(كَبِيرٌ)**. وإذا وصفه الكبير سبحانه بأنه كبير، فمن يستطيع أن يتخيل سعته؟ إن مقاييسنا تضيق عن عطائه؛ فنحن نقيس الجزاء بحجم أعمالنا، والله يمنح بقدر فضله.

(أَفَمَنْ رُئِيَ لَهُ سُوءٌ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ) (٨)

ليست أخطر مراحل الضلال أن يفعل الإنسان السوء وهو يعرف أنه سوء؛ فالمعرفة، وإن ضعفت أمام الشهوة، تبقى في القلب طريقاً للندم. الخطر الأكبر أن يُزَيَّن له سوء عمله حتى يراه حسناً؛ عندئذ لا يفقد الطريق فحسب، بل يفقد البوصلة التي تخبره أنه ضائع.

قد يقع العاصي في الذنب ثم يبكي، وهذا القلب أقرب إلى النجاة من قلب يظلم ثم يتباهى بالعدل، ويكذب ثم يسمي كذبه ذكاء، ويهدم ثم يزعم أنه يبني. الأول مريض يعرف مرضه، أما الثاني فقد أقنعه المرض بأنه العافية.

﴿زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ﴾.

التزيين لا يغير حقيقة العمل، وإنما يغير الصورة التي يراها بها صاحبه. القبح باقٍ في ميزان الحق، لكن مرآة القلب أصابها التشوه، فأصبحت تعكس الأشياء مقلوبة.

وهذا التزيين قد يأتي من الشيطان، ومن الهوى، ومن البيئة التي تصفق للخطأ، ومن الجماعة التي تمنح الجريمة اسم البطولة. فإذا اجتمع الهوى الداخلي والتصفيق الخارجي، صار الرجوع عن الباطل شاقاً؛ لأن الإنسان لا يحتاج عندئذٍ إلى الاعتراف بخطئه وحده، بل إلى هدم صورة كاملة صنعها لنفسه.

وكم من إنسان لا يدافع عن الفكرة لأنها حق، بل لأنها أصبحت جزءاً من كرامته! يظن أن تراجعها عنها

هزيمة، مع أن الرجوع إلى الحق أعظم انتصار للإنسان على نفسه. إن الكبر يحول الخطأ من عثرة يمكن تجاوزها إلى بيت يقيم فيه صاحبه ثم يزيّن جدرانه بالحجج.

﴿قَرَأَهُ حَسَنًا﴾.

الرؤية هنا رؤية القلب والحكم، لا رؤية العين. فمن الناس من يمتلك بصرًا حادًا، لكنه لا يرى أبعد من هواه. وقد يكون شديد الذكاء، إلا أن نكاهه يعمل موظفًا عند رغباته؛ يبتكر لها المبررات، ويبحث لها عن الشواهد، ويغلق كل نافذة قد يدخل منها التصحيح.

ليس الذكاء وحده ضمانًا للهداية؛ فقد يزيد الذكي قدرة على خداع نفسه إذا لم يكن قلبه صادقًا في طلب الحق.

﴿فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾.

الهداية بيد الله، والعبد مطالب أن يطلبها ويأخذ بأسبابها ويقبل على الحق إذا ظهر له. والله لا يظلم أحدًا؛ وإنما يخذل من أعرض واختار العمى واستحب الضلالة، ويهدي من أقبل عليه وصدق في طلبه. فمشيئة الله جارية بعلمه وحكمته، لا بعبث ولا ظلم.

وهذه الحقيقة تهدم غرور المهتدي أيضاً. لست مؤمناً لأنك أذكى من غيرك، ولا لأن معدنك البشري أرقى، بل لأن الله رحمك بالهداية. ولو وكلك إلى نفسك لضعت في أول مفترق. فكلما رأيت ضالاً، لا تنظر إليه من برج العُجب، بل اسأل الله الثبات، وارحم ضعفه، واعرف قدر النعمة التي تحملها.

ثم يتجه الخطاب إلى النبي ﷺ: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَاتٍ﴾.

يا لها من صورة! كأن النفس تتقطع قطعةً قطعة من شدة الحزن، وتذهب وراء المعرضين حسرةً بعد حسرة، حتى لا يبقى لصاحبها منها شيء.

كان النبي ﷺ يريد لهم النجاة حتى كاد الحزن على إعراضهم يستنزف قلبه. لم يكن خصام الداعية مع الناس خصام منتصر لنفسه؛ بل كان ألم طبيب يرى المريض يرفض الدواء، وألم من يقف عند حافة الهاوية ينادي قوماً يسировون إليها وهم يضحكون.

لكن الرحمة البشرية، مهما سمت، لها حد لا ينبغي أن يتحول بعده حزنها إلى استهلاك للنفس. أنت لا تملك

هداية القلوب، ولا تستطيع أن تريد لإنسان نجاته أكثر مما يريد لها هو لنفسه. بئس، واصبر، وارفق، وادع؛ لكن لا تجعل إعراضه يهدمك من الداخل.

وفي هذا توجيه لكل صاحب رسالة: لا تقس صدق فكرتك بعدد المستجيبين، ولا تجعل رفض الناس يلتهم سلامك. قد تحزن، فالحزن دليل حياة القلب، لكن لا تدع الحسرات تذهب بنفسك. فأنت مكلف أن تكون مصباحًا، لا أن تجبر المغمضين على فتح أعينهم.

﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾.

يعلم ظاهر أعمالهم وخفي دوافعهم، ويعلم أين انتهى الجهل وبدأ العناد، وأين كان الإنسان مخدوعًا وأين صار خادعًا. فلا تحمل على كتفك عبء الحكم النهائي؛ فذلك إلى من يعلم ما لا تعلم.

وهنا يستريح القلب من جهتين: يستريح من الحيرة، لأن الله يعلم؛ ويستريح من طلب الانتقام، لأن الله سيحكم.

وهكذا ينتهي هذا الفصل عند أخطر صراع في الإنسان: الصراع على تسمية الأشياء بأسمائها. فالشيطان لا ينتصر دائماً بأن يمنع الإنسان من رؤية الحق، بل قد ينتصر حين يغيّر في عينه صورة الباطل حتى يبدو حقاً.

ومن هنا تصبح الهداية أكثر من معرفة معلومة؛ إنها سلامة في جهاز الرؤية الباطنة، بحيث يبقى الحسن حسناً ولو هجره الناس، ويبقى القبيح قبيحاً ولو زينت الحضارة، وشفقت له الجماهير، وألبسته اللغة ثوب الفضيلة.

وسينتقل بنا السياق بعد ذلك من القلب الذي ماتت فيه البصيرة إلى الأرض التي ماتت فيها الحياة؛ ليرينا كيف ترسل السماء ريحاً، فتسوق سحباً، فينزل الماء، ويهتز التراب. وكأن القرآن يقول: إن الذي يحيي الأرض بعد موتها قادر أن يحيي القلوب أيضاً؛ غير أن الأرض لا تعاند المطر، أما الإنسان فقد يغلق نوافذه في وجه الرحمة.

الفصل الثالث

الريح التي توقظ الموتى والبحر الذي يحمل الأرزاق

الآيات: ٩-١٤

﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَّاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فُسْقَنَاهُ إِلَىٰ بَلَدٍ
مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ كَذَٰلِكَ النُّشُورُ﴾ (٩)

بعد أن حدثتنا الآية السابقة عن موت البصيرة، تفتح هذه الآية نافذةً على بعث الأرض؛ كأنها تعيد إلى القلب رجاءه، وتقول له: لا تجعل مشهد الموت هو الكلمة الأخيرة، فإن في خزائن الله رياحاً لم تهب بعد، وسحباً لم تصل، وماءً ينتظر الإذن بالنزول.

﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَّاحَ﴾.

الريح في عين الغافل حركة هواء، لكنها في عين المتدبر رسولٌ مأمور. لا تهبُّ من تلقاء نفسها، ولا تختار مسارها، ولا تحمل السحاب بقوة مستقلة؛ إنها جندي من جنود الله، تتحرك في ملكه بقدره.

وللرياح طرائق لا تراها العين. تمرُّ على البحار فتستخرج منها الماء بخارًا، وتصعد به إلى السماء، ثم تسوقه في رحلة فوق الجبال والسهول والصحاري، حتى يبلغ الموضع الذي كتب الله له أن يُسقى. إنها تحمل الأنهار في جوف الهواء من غير أن يراها أحد، وتنقل خزائن الماء فوق رؤوس الناس في قوافل شفافه.

﴿فَتَنْثِيرُ سَحَابًا﴾.

اختار القرآن فعل الإثارة، وفيه حركة بعد سكون؛ فالرياح تهيج السحاب وتجمعه وتدفعه. ذرات متفرقة لا يلتفت إليها أحد تصبح جيشًا من الغيم، ثم يتكاثف الجيش حتى يغطي الأفق.

وهكذا تصنع القدرة أعمالها الكبرى من أشياء تبدو صغيرة. قطرة إلى قطرة تصنع مطرًا، وحنة إلى حبة تصنع حقلاً، وكلمة إلى كلمة تصنع وعياً، وخطوة إلى خطوة تصنع طريقاً. نحن نحقر البدايات لأننا لا نرى ما أودع الله فيها من قابلية للنمو.

ثم يتحول الأسلوب من الغيبة إلى ضمير العظمة: ﴿فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ﴾. كأن المشهد حين اقتراب من غايته كشف عن اليد المدبرة ورائه. الرياح تثير، والسحاب يتحرك، لكن السائق على الحقيقة هو الله.

والبلد الميت ليس ضعيف الحياة فحسب؛ بل قد انقطعت فيه علاماتها. أرض متشققة، غبار يعلوها، نبات غاب عنها، وصمت يوحي بأن الحياة لم تمر من هنا قط. ثم يصل السحاب.

لم تسافر الأرض إلى الماء، بل سيق الماء إليها. وفي هذا عزاء لكل قلب أثقله العجز: ليست كل رحمت الله مشروطة بأن تبلغها بقدميك؛ فبعضها يساق إليك وأنت في موضعك، لأن الله رأى موتًا لا يحييه إلا غيث من عنده.

﴿فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾.

ينزل الماء على التراب، فإذا السكون حركة، واليبس اخضرار، وإذا البذور التي حسبها الرائي ترابًا تشق أكفانها وتصعد نحو الضوء. لم يأت الماء بالنبات من خارج الأرض، بل أيقظ حياة كانت مودعة فيها تنتظر موعدها.

وكم في الإنسان من بذور خير تنتظر ماءها! قد تبدو الروح قاحلة، لكن كلمة صادقة توقظ فيها ما نام. وقد يظن المرء أن قلبه قد مات، ثم تمر به آية فتشق في داخله طريقًا إلى الله. وما دام الله يحيي الأرض بعد موتها، فلا يحق لأحد أن يحكم على قلب بالتوقف الأبدي.

لكن الآية لا تقف عند إحياء الأرض، بل تنتقل من المشهد المشهود إلى الغيب الموعود: ﴿كَذَلِكَ النُّشُورُ﴾.

هكذا يخرج الناس من قبورهم. ليست عودة الأجساد بعد الموت أبعد عن القدرة من خروج النبات من التراب. الأرض التي ابتلعت الأجساد تحفظها بعلم الله، كما تحفظ البذرة في ظلماتها، ثم يأتي أمر واحد فتتشقق القبور عن أهلها.

إن كل ربيع برهان مصغر على القيامة، وكل حقل أخضر شهادة صامته بأن الموت ليس فناً. غير أن الإنسان يألف المعجزة المتكررة فيسميها فصلاً من فصول السنة، ولو رآها مرة واحدة بعد أرض لم يعرف فيها النبات لخرَّ مبهوً.

والبعث ليس فكرة بعيدة عن نظام الكون؛ إنه الحقيقة التي يشرحها المطر كل عام، ولكن بلغة الماء والتراب.

﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا ۖ إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ ۚ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَمَكْرُ أُولَٰئِكَ هُوَ يُبْورُ﴾
(١٠)

في النفس جوع خفي إلى العزة. لا يريد الإنسان أن يكون مهاناً، ولا أن يعيش بلا قيمة، ولا أن يشعر أنه زائد عن حاجة الوجود. لكن الناس يختلفون في الطريق الذي يطلبون منه هذه العزة؛ فمنهم من يطلبها في المال، ومنهم من يطلبها في السلطة، ومنهم من يتكى على جماعة أو نسب أو شهرة.

فَتَأْتِي الْآيَةَ لَتَصْحَحْ جِهَةُ الْطَلَبِ: ﴿فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾.

لم تقل: فله بعض العزة، بل ﴿جَمِيعًا﴾. كل عزة حقيقية فممه، وما لم يتصل به فليس إلا انتفاخًا مؤقتًا سرعان ما تنقبه الأيام. قد يبدو صاحب السلطان عزيزًا والناس ينحنون أمامه، لكن إن كانت عزته قائمة على خوفهم، فإنها تسقط لحظة يكفون فيها عن الخوف.

العزة التي يمنحها الناس يسحبونها، والعزة التي يبنوها المال تتداعى بذهابه، والعزة التي تقوم على الشهرة تعيش تحت رحمة المزاج العام. أما من اعترز بالله فقد وضع كرامته في موضع لا تصل إليه أيدي البشر.

والاعتزاز بالله لا يعني التعالى على خلقه؛ بل هو تحرر من الذل لهم. من عرف أن العزة لله لم يحتقر فقيرًا، ولم يتملق قويًا، ولم يبيع موقفه ليشتري قبولًا. يمشي متواضعًا لأنه عبد، ويمشي عزيزًا لأنه عبد لله وحده.

ثم تفتح الآية طريق الصعود الحقيقي: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾.

ما أعجب شأن الكلمة! تخرج من فم الإنسان فلا تُرى، لكنها لا تضيع. كلمة التوحيد، والذكر، والدعاء، والصدق، والنصيحة، والتثبيت، والمواساة؛ كُلُّها تصعد إلى الله. قد ينساها قائلها، لكن السماء لم تنسها. ورب كلمة قالها المرء في لحظة صفاء، فبقي نورها يسير بين الناس بعد أن غاب صوته.

والكلمة الطيبة ليست طيبةً بموسيقاها وحدها، بل بصدق معناها وطهارة مقصدها. فقد تكون العبارة ناعمةً وفي جوفها خداع، وقد تكون شديدةً وفي باطنها نصح ورحمة. طيب الكلام من طيب منبعه وطيب أثره.

﴿وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾.

الكلمات تحتاج إلى أعمال تصدقها. فالقول وحده قد يصعد، لكن العمل الصالح يمنحه ثقله وبرهانه. لا يكفي أن تتحدث عن الرحمة وقلبك قاسٍ، ولا عن العدل وأنت تظلم، ولا عن التوكل وأنت تبيع مبادئك لأول خوف.

العمل الصالح يرفع الكلم الطيب، والكلم الطيب يوجّه العمل الصالح؛ فلا صلاح لعمل بلا إخلاص وهداية، ولا صدق لكلام لا تشهد له الجوارح.

وفي المقابل هناك من لا يطلب الارتفاع بالكلمة الطيبة والعمل الصالح، بل بالمكر: ﴿وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ﴾.

المكر تدبير خفي لإيقاع الشر. يمشي صاحبه في الظاهر هادئاً، بينما يحفر في الخفاء حفرة لغيره. ينسج رواية كاذبة، أو يحرف حقيقة، أو يوقع بين القلوب، أو يلبس الباطل ثوب المصلحة العامة.

لكن المكر يحمل بذرة انهياره في داخله: ﴿وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يَبُورُ﴾. والبوار هو الهلاك والفساد والكساد. قد ينجح المكر في جولاته الأولى، وقد يصفق أصحابه لأنفسهم حين يرون ضحيتهم تتألم، لكن نجاح اللحظة ليس حكم النهاية.

الباطل يحتاج في كل يوم إلى كذبة جديدة تحرس كذبه القديمة، أما الحق فيكفيه أن ينكشف. ولهذا يعيش الماكر أسيرًا لما صنع؛ يخشى افقضاحه، ويراقب الثقوب في جداره، ويحمل في ذاكرته أعباء القصص التي اختلقها.

المكر يبور لأن الله عليم به، ولأن الكون الأخلاقي ليس متروكًا للفوضى. وقد تتأخر لحظة انكشافه، لكنها لا تضيع.

﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا ۚ وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أَنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ ۚ وَمَا يُعَمِّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يَنْقُصُ مِنْ عُمرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ ۚ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ (١١)

بعد الحديث عن العزة، يردُّ القرآن الإنسان إلى أصله؛ حتى لا تتحول العزة في نفسه إلى كبر.

﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ﴾.

أيها الإنسان الذي تتعالى بثوبك ومنصبك ونسبك، إن بدايتك تراب تدوسه الأقدام. لم تُخلق من ذهب حتى تزعم أن جوهرك أغلى من غيرك، ولم يُخلق قوم من نور وقوم من طين؛ الأصل واحد، والرب واحد، والعودة إلى الأرض واحدة.

كان أبو البشر آدم عليه السلام من تراب، ثم امتدت ذريته من نطفة: ﴿ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ﴾. انتقال يطمأن الغرور: من تراب لا يشعر، ثم من قطرة ضعيفة، ثم إنسان يخاصم في خالقه ويتوهم أنه يملك نفسه!

إن القرآن يذكر الإنسان ببدايته لا ليهينه، بل ليعيده إلى حجمه الحقيقي. فالتواضع ليس احتقار الذات؛ إنه معرفة أصلها وحدودها، ثم معرفة ما رفعها الله به من روح وعقل وتكليف.

﴿ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا﴾.

لم يجعل الله الإنسان جزيرة مغلقة، بل خلق فيه حاجةً إلى الآخر، وجعل استمرار الحياة قائماً على اللقاء والسكن والتكامل. الزوجية شاهد على أن الإنسان لا يكتمل وحده، وأن بعض ضعفه مقصود ليعلمه الأنس والمودة والمسؤولية.

ثم تدخل الآية إلى أعرق مواضع الخفاء: ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أَنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ﴾.

كل حمل في إنسان أو حيوان، في مدينة مزدحمة أو صحراء لا يمر بها أحد، معلوم لله. يعلم اللحظة التي بدأت فيها الحياة، وكيف تتشكل خلية بعد خلية، وماذا سيكون هذا المخلوق، ومتى يخرج إلى الدنيا.

الأم تحمل جنينها في رحمها، والله يحمله بعلمه ورعايته. قد لا تعرف هي ما يجري في أحشائها، لكن شيئاً من تفاصيله لا يغيب عنه سبحانه. قبل أن تسمع نبضه، كان الله يسمعه، وقبل أن ترى صورته، كان الله يعلم صورته ومستقبله ورزقه وأجله.

﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقَصُ مِنْ عُمْرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ﴾.

العمر ليس مساحة سائبة. كل يوم يضاف إلى حياة إنسان معلوم، وكل لحظة تنقضي من عمره مكتوبة. لا يتقدم الأجل سهوًا، ولا يتأخر نسيانًا.

وقد تختلف أعمار الناس: هذا يمتد به الزمن حتى يشيب، وذاك يرحل في ريعان شبابه، وثالث لا يكاد يفتح عينيه على الدنيا. لكن قصر العمر وطوله ليسا وحدهما مقياس القيمة؛ فرب عمر قصير امتلأ حتى فاض أثره على قرون، ورب عمر طويل مر خفيًا لم يترك وراءه إلا رقمًا.

ليس السؤال الأكبر: كم عشت؟ بل: بماذا ملأت ما عشت؟

وكل يوم ينقص من عمر الإنسان يقترب به من الحقيقة التي ظل يؤجلها. نحن لا نخسر الزمن دفعة واحدة؛ إنه يغادرنا في جرعات صغيرة اسمها الساعات، حتى نستيقظ ذات يوم فنجد أن الطريق الذي ظنناه طويلًا قد صار وراءنا.

﴿إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾

مليارات الخلائق، وبدايات لا تحصى، وأرحام تتشكل فيها الحياة، وأعمار تتناقص، وأجال تتوزع؛ كل ذلك يسير على الله. لا يشغله عمر عن عمر، ولا رحم عن رحم، ولا موت في أقصى الأرض عن ميلاد في أقصاها.

وما يثقل العقل إحصاؤه لا يثقل علم الله حفظه.

﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمَنْ كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاجِرَ لَتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (١٢)

﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ﴾؛ فهذا ماء، وذاك ماء، ولكن التشابه في الصورة لا يلغي الاختلاف في الحقيقة.

هذا ﴿عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ﴾؛ عذب يطفئ العطش، شديد العذوبة، ينساب في الحلق بلا أذى. وهذا ﴿مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾؛ شديد الملوحة لا يستسيغه الشارب.

وفي المشهد إشارة تتجاوز الماء إلى عالم المعاني؛ فليست كل الأفكار المتشابهة في ألفاظها سواء، ولا كل القلوب التي تحمل هيئة الإنسان متساوية. ثمة

كلمة كالماء العذب تحيي، وكلمة كالماء الأجاج تزيد العطشان عطشاً. وثمة علم يقود إلى الله، وعلم يتحول في يد الكبر إلى حجاب.

ومع اختلاف البحرين لم يحرم الله الإنسان خير أحدهما: ﴿وَمِنْ كُلِّ تَاكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا﴾. ففي الماء العذب رزق، وفي الملح الأجاج رزق. وما لا يصلح للشرب قد يصلح لمنافع أخرى؛ لأن حكمة الله أوسع من أن تحصر قيمة الشيء في حاجة واحدة.

ولعل في ذلك تربية للنظر: لا تحكم على الأشياء بأنها بلا فائدة لأنها لم توافق استعمالك المباشر. قد يغلق الله فيها باباً ليفتح أبواباً، وقد يمنع عنها خاصية ليودع فيها خصائص أخرى.

﴿وَتَسْتَخْرِجُونَ حَلِيَّةً تَلْبَسُونَهَا﴾.

من أعماق الماء المظلم يخرج اللؤلؤ الذي يتزين به الإنسان في الضوء. شيء جميل نشأ في موضع لا تراه العيون، كما تنشأ كثير من جواهر النفوس تحت ضغط الألم وفي أعماق المحن. بعض الصفات

النفيسة لا تُصنع على سطح الراحة؛ بل تتكون في القاع، حيث الصبر والوحدة والمجاهدة.

﴿وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاجِرَ﴾.

المخر شق الماء. والسفن تمضي في البحر فتشق صفحته، تحمل الناس والأرزاق والرسائل من شاطئ إلى شاطئ. الماء الذي قد يغرق الإنسان هو نفسه الذي يحمل سفينته؛ فإذا منحه الله العلم بالسنن، صار موضع الخوف طريقاً للمنفعة.

وهذه من بدائع التسخير: أن يحمل الماء ما هو أثقل منه، وأن يهدي الله الإنسان إلى صناعة الفلك، ثم يجعل للنجوم والرياح والاتجاهات قوانين تعينه على العبور.

﴿الْتَبَتُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾.

سمّى ما يطلبه الناس بالتجارة والعمل ﴿فَضْلِهِ﴾، حتى لا يظن التاجر أن ذكائه أنشأ الرزق من العدم. أنت تبذل جهدك، لكنك تتحرك داخل فضل سابق: بحر خلق لك، وسفينة هُديت إلى صنعها، ورياح سُخرت، وبضائع أنبتتها الأرض، وعقل يفكر، وجسد يعمل.

الإنسان لا يصنع النعمة ابتداءً؛ إنه يعيد ترتيب ما
منحه الله.

﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

هذه هي الغاية الأخلاقية من مشهد البحر. ألا تمر
النعم عبر الإنسان ثم تخرج منه بلا اعتراف. فالشكر
ليس كلمة تقال بعد الطعام فحسب، بل وعي يربط
العطاء بالمنعم، واستعمال للنعمة فيما يرضيه.

ومن لم تنتج النعمة في قلبه شكرًا، فقد أخذ قشرتها
وفاته لبها.

﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُؤَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ
الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ
لَهُ الْمُلْكُ ۚ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ
قِطْمِيرٍ﴾ (١٣)

﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ﴾؛ يدخله فيه قليلاً قليلاً، فتطول
ساعات الليل وتقصّر ساعات النهار. ﴿وَيُؤَلِّجُ النَّهَارَ
فِي اللَّيْلِ﴾؛ فيمتد الضوء ويتراجع الظلام. حركة
هادئة لا يسمع لها الإنسان صوتًا، لكنها تعيد توزيع
الزمن والحرارة والحياة على الأرض.

لا يهجم الليل على النهار دفعةً بلا نظام، ولا يقتحم النهار الليل فوضى؛ بل يمتزج طرف هذا بطرف ذاك في تدرج رفيق. حتى التحولات الكونية الكبرى تجري أحياناً في هدوء لا يلفت الانتباه.

وفي ذلك درس للنفس: ليست كل التحولات الصادقة ضجيجاً. قد يدخل النور إلى القلب كما يدخل النهار في الليل؛ درجة بعد درجة، حتى يستيقظ الإنسان ذات يوم فيجد أن عتمةً طويلة قد انحسرت عنه.

﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾.

الشمس التي تفوق الأرض حجمًا، والقمر الذي يرافق لياليها، كلاهما مسخر. عظم الجرم لا يمنحه استقلالاً عن خالقه. يجريان وفق تقدير، لا يتأخران عن مدارهما ولا يتمردان على الوظيفة التي أرادها الله لهما.

﴿كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾.

حتى الشمس لها أجل، والقمر له أجل، والنظام الذي يبدو للإنسان راسخاً له نهاية مكتوبة. لا شيء في هذا الكون يحمل في ذاته ضمان البقاء. وكل مخلوق، مهما طال عمره وعظم حجمه، يسير نحو مواعده.

إذا كانت الشمس ستنتهي، فكيف يغتر إنسان بسنواته القليلة؟ وإذا كان للقمر أجل، فكيف يتوهم سلطان أن ملكه خارج قانون الأفول؟

ثم يأتي التعريف الذي ينبغي أن تنتهي إليه كل هذه المشاهد: ﴿ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ﴾. الذي يداخل بين الليل والنهار، ويسخر الشمس والقمر، هو ربكم الذي خلقكم ورباكم بالنعمة ودبر شؤونكم.

﴿لَهُ الْمُلْكُ﴾.

له الملك خلقاً وتدبيراً وحكماً. ما في أيدي الناس عارية مؤقتة؛ يملكون على سبيل الاستخلاف، لا على سبيل الاستقلال. أموالهم وأجسادهم ومناصبهم وأيامهم كلها داخلة في ملك الله.

وفي المقابل: ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ﴾.

القطمير هو القشرة الرقيقة التي تغلف نواة التمرة. شيء ضئيل يمر به الإنسان ولا يكاد يراه. والآلهة المدعوة من دون الله لا تملك حتى هذا المقدار.

يا للمفارقة! الله يدبّر الشمس والقمر، وهم لا يملكون غشاء نواة. الله يولج الليل في النهار، وهم عاجزون عن أدنى شيء. فكيف ينصرف الدعاء والخضوع والخوف والرجاء عن المالك كله إلى من لا يملك شيئاً؟

وليس الشرك محصوراً في السجود لصنم؛ فقد يتسلل إلى القلب حين يمنح المخلوق من الخوف والرجاء والتعلق ما لا يكون إلا لله، فيتوهم أن مستقبله كله معلق برضا مسؤول، أو أن رزقه بيد مؤسسة، أو أن نجاته مرهونة بإنسان.

الأسباب تُحترم ويؤخذ بها، لكنها لا تُعبد في باطن القلب.

﴿إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا
اسْتَجَابُوا لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بَشِرْكُمْ ۖ وَلَا
يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ (١٤)

تتابع الآية كشف عجز المدعويين من دون الله: ﴿إِنْ
تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ﴾. وما أشد وحدة الإنسان
حين ينادي من لا يسمع! يسكب خوفه عند باب مغلق،
ويضع رجاءه في يد لا تتحرك، ويطلب الحياة ممن
لا يملك لنفسه حياةً ولا موتاً.

﴿وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ﴾.

فالعجز أعمق من فقدان السمع؛ حتى لو فرض أنهم
سمعوا، فلا يملكون الإجابة. إنهم أنفسهم مفتقرون إلى
الله، داخلون تحت سلطانه، لا يخرجون عن قضائه.

وقد تشمل الآية كل من دُعي من دون الله بما لا يقدر
عليه إلا الله، ولو كان المدعو عند الله صالحاً مكرماً؛
فصلاح المخلوق لا يجعله شريكاً للخالق، وكرامته لا
تمنحه شيئاً من خصائص الربوبية.

﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بَشِرْكُمْ﴾.

ستتقلب تلك الصلوات التي ظنّها المشركون أسباب نجاة إلى خصومات وبراءة. ما عبّده أو دعوّه من دون الله يتبرأ منهم، وتسقط الأسماء المزيّنة، ويظهر الفعل باسمه الحقيقي: شرك.

ويا لها من خيبة أن يقضي الإنسان عمره متعلّقاً بغير الله، ثم يلقاه يوم القيامة عدوّاً له! ظن أن الواسطة ستقرّبه، فإذا بها تتبرأ منه؛ وظن أن المعبود سيدافع عنه، فإذا به ينكر عبادته.

كل علاقة لا تقوم على الحق تنقلب في الآخرة حسارة. وكل محبة تخرج بالإنسان عن حدود الله تحمل في باطنها خصومة مؤجلة.

ثم تختم الآية بهذه الجملة المهيبة: ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾.

من الذي يخبرك بهذه الحقائق؟ إنه الله الخبير؛ الخبير بحقيقة من تدعون، والخبير بمقدار عجزهم، والخبير بما سيقولونه يوم القيامة، والخبير بما تخفيه القلوب وراء عباداتها وتعلقاتها.

ولا ينبئك مثل خبير؛ فلا تقدم أوهام البشر على خبر الله، ولا تجعل محدودية الحس حَكَمًا على الغيب. من خلق الآخرة هو الذي يخبرك عنها، ومن خلق القلوب هو الذي يعلم خفاياها، ومن بيده الملك هو الأعلم بمن يملك ومن لا يملك.

وهكذا ينتقل هذا الفصل من الريح إلى السحاب، ومن السحاب إلى الأرض، ومن الأرض إلى الإنسان، ومن الإنسان إلى البحرين، ومن البحرين إلى الشمس والقمر، ثم يردُّ هذه الحركة الكونية كُلِّها إلى مركز واحد: ﴿ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ﴾.

فليس الكون مجموعة مشاهد مبعثرة، بل بناء واحد يشهد لوحداية بانيه. الريح لا تسوق نفسها، والأرض لا تحيي ذاتها، والنطفة لا ترسم مصيرها، والبحر لا ينشئ منافعها، والشمس لا تحدد مدارها، والمدعوون من دون الله لا يملكون قطميرًا.

وفي وسط هذا الوجود يقف الإنسان بين دعوتين: نداء الأشياء كُلِّها أن ربها واحد، ونداء الوهم أن يوزع قلبه بين أرباب متفرقين.

أما التوحيد فهو أن يجتمع القلب بعد تشتتته؛ فيعرف
أن الذي يملك السماء هو نفسه الذي يسمع الدعاء،
وأن الذي يسوق السحاب إلى البلد الميت قادر أن
يسوق الرحمة إلى القلب المنكسر، وأن من لم يجد
بابه عند الله فلن يجده في الوجود كلّه.

الفصل الرابع

فَقْرُ الْإِنْسَانِ وَمَوَازِينُ الْحَيَاةِ

الآيات: ١٥-٢٢

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ
الْحَمِيدُ﴾ (١٥)

بعد أن أثبتت الآيات أن المدعويين من دون الله لا يملكون من قطمير، تكشف هذه الآية حقيقة أعمق: ليس العجز وصفًا لتلك المعبودات الباطلة وحدها، بل هو الوصف الأصلي لكل مخلوق.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ﴾.

لم يقل: إن بعضكم فقراء، ولا إنكم تفتقرون إلى الله في أوقات الشدة وحدها؛ بل جعل الفقر هويتنا الوجودية: ﴿أَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ﴾.

فالإنسان لا يفتقر إلى الله فقط حين يمرض فيطلب الشفاء، أو يجوع فيطلب الطعام، أو يضيع فيطلب الهداية؛ بل يفتقر إليه وهو صحيح وشبعان وآمن.

يفتقر إليه في كل نفس يدخل صدره، وفي كل نبضة تتحرك في قلبه، وفي كل لحظة يبقى فيها عقله حاضرًا وجسده متماسكًا.

نحن لا نملك وجودنا ثم نحتاج إلى الله في بعض ملحقاته؛ بل وجودنا نفسه عطية متجددة منه. لو أمسك عنا مدد الحياة لحظةً واحدة، لانقطع ما نسميه استقلالاً، وانكشفت هشاشة الكائن الذي كان يظن أنه قائم بنفسه.

والفقر إلى الله ليس فقر المال. قد يكون الرجل غنيًا بخزائنه، لكنه فقير إلى نبضة لا يشتريها، وإلى نوم لا يصنعه، وإلى أمن لا تضمنه الحراسة، وإلى محبة لا تنتجها العقود. وقد يكون صحيح البدن، لكنه فقير إلى هداية تحمي صحته من أن تصير أداةً في المعصية.

إننا فقراء إليه في النعمة، وفقراء إليه في معرفة النعمة، وفقراء إليه في شكرها، وفقراء إليه في حفظها من الزوال.

والإنسان يكره أن يُوصَفَ بالفقر؛ لأن الفقر يجرح وهم الاكتفاء الذي يبنيه حول نفسه. لكنه إن لم يعترف بفقره إلى الله، عاش فقيرًا إلى كل شيء سواه. يتسَوَّل قيمته من إعجاب الناس، وأمنه من قوتهم، وسعادته من مقتنياته، حتى يصبح قلبه موزعًا على أبواب المخلوقين.

أما العبودية لله فهي نقل الفقر إلى بابه وحده؛ وحين يضع الإنسان فقره هناك يستغني قلبه عما سواه. لا لأنه لم يعد محتاجًا إلى الأسباب، بل لأنه عرف أن الأسباب كلّها فقيرة مثله.

﴿وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾.

جاء ضمير الفصل ﴿هُوَ﴾ ليؤكد انفراده بالغنى المطلق. كل غني سواه غني بشيء وصل إليه، أما الله فغني بذاته. لا تزيده طاعة الطائعين، ولا تنقصه معصية العاصين، ولا يحتاج إلى خلقه ليكتمل ملكه.

خلقهم لا ليستكثر بهم من قلة، ولا ليستعين بهم من عجز؛ وإنما خلقهم رحمةً وحكمةً وابتلاءً، وأسبغ عليهم نعمه مع غناه عنهم.

وهو ﴿الْحَمِيدُ﴾؛ المحمود في ذاته وصفاته وأفعاله. وغناه ليس غنى المستغني الذي لا يبالي، بل غنى الكريم الذي يعطي من غير أن ينقص عطاؤه خزائنه. وما أروع اقتران الغنى بالحمد! فقد يغنى المخلوق فيقسو، أما الله فغناه كمال، وعطاؤه فضل، ومنعه حكمة، وتدبيره محمود.

إن كل علاقة بين مخلوقين يعترىها احتياج متبادل، أما علاقتك بالله فهي علاقتك بمن لا يريد منك أن تسد نقصاً عنده؛ إنما يريد أن يطهرك ويهديك ويرحمك. عبادتك لا تضيف إلى ملكه شيئاً، لكنها تبنيك أنت.

﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ (١٦)

﴿وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ (١٧)

ما دام الناس هم الفقراء والله هو الغني، فوجودهم ليس ضرورةً يفرضها الكون على خالقه. ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ﴾؛ بكلمة تنتهي أجيال، وتسكن مدن، وتطوى حضارات كانت تظن أنها بلغت من القوة ما يمنع عنها الزوال.

الإنسان شديد الافتتان بحضوره. إذا عمر الأرض توهم أنها لا تستغني عنه، وإذا صنع حضارة ظن أن التاريخ قد ربط مستقبله باسمه. لكن كم من أمم ملأت الدنيا حركة، ثم صارت آثارًا يمر بها السائح، أو أسماءً مختلفة في كتب التاريخ!

كانت لهم أسواق تضحج، وبيوت يخطط أهلها لغد طويل، وقادة يظنون أن عروشهم أعمدة السماء. ثم مضوا جميعًا، وبقيت الأرض تستقبل صباحًا جديدًا كأنهم لم يملكوها يومًا.

﴿وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾.

لا يعجز الله أن يستبدل جيلًا بآخر، وقومًا بقوم، وحملةً للحق بمن أعرضوا عنه. فإذا ظن قوم أن الرسالة قائمة بهم وحدهم، وأن الدين يحتاج إليهم، فقد جهلوا غنى الله وفقرهم.

الله يكرم الإنسان بأن يستخدمه في الخير، لكن الخير لا يتوقف عليه. ومن أعظم صور الغرور أن يتعامل المرء مع الطاعة كأنها خدمة يؤديها الله، متناسيًا أنها

منحة من الله له. حين يوفقك لعبادته، فإنه لا يسد بك حاجة في ملكه، وإنما يفتح لك طريقًا إلى نجاتك.

وفي إمكان الإذهاب والإتيان بخلق جديد معنى يوقظ المسؤولية: الفرص التي لم نؤد حقها لا تبقى معلقة بنا إلى الأبد. قد يحمل الراية غيرنا، ويعمر موضعنا قوم أصدق، ويستخرج الله من صفوف لم نلتفت إليها من يقوم بما عجزنا عنه أو تثاقلنا.

﴿وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾؛ أي ليس بممتنع ولا صعب. إن خلق الأولين من العدم دليل على سهولة الإتيان بغيرهم. ومن قال للشيء الأول: كن، لا يعجزه أن يقول لشيء آخر: كن.

وليس في الآيتين احتقار للإنسان، بل تحرير له من عبادة ذاته. قيمتك ليست في أن الكون لا يستغني عنك؛ بل في أن الله، مع غناه عنك، منحك فرصة أن تعرفه وتعبدّه وتحمل الأمانة.

﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ جِثْلِهَا لَا يَحْمِلُ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۖ إِنَّمَا تُنذِرُ

الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَمَنْ تَزَكَّى فَإِنَّمَا يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ ۚ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴿١٨﴾

بعد تقرير أن الله قادر على إذهاب الخلق، تأتي الآية لتقرر أن ذهابهم إلى الحساب ليس ذهاب جماعات تتخفف المسؤولية داخل أعدادها؛ بل يجيء كل إنسان حاملاً عمله.

﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾.

الوزر هو الحمل الثقيل، ثم استعمل في الذنب لما يثقل ظهر صاحبه يوم القيامة. ولا تحمل نفس مذنب ذنب نفس أخرى. لا يُعاقب بريء بجريمة مذنب، ولا يُنقل الإثم من صاحبه إلى من لم يكتسبه.

إنه مبدأ العدل الفردي في أنقى صورته: الإنسان مسؤول عما اختار وعمل. فلا ينفعه أن يقول: كان آبائي يفعلون، أو كانت جماعتي تأمر، أو كان المجتمع يسير في هذا الاتجاه. قد يخفف الإكراه الحقيقي من المسؤولية بقدر ما يعلمه الله، لكن مجرد الذوبان في الجمهور لا يحول الباطل حقاً.

إن الجماعة قد تمنح المرء شجاعة ارتكاب ما كان يستحي أن يفعله وحده؛ يظلم مع الظالمين، ويسخر مع الساخرين، ويقول: أنا واحد من كثير. لكن الكثرة التي أخفت ملامحه في الدنيا لن تخفيه يوم القيامة. هناك يعود كل وجه إلى فرديته، وكل صوت إلى صاحبه، وكل أثر إلى اليد التي صنعته.

﴿وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ جِمْلِهَآ لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ﴾.

تصوّر نفساً أثقلتها الذنوب حتى انحنى بها الحمل، تنادي من حولها أن يحملوا عنها جزءاً منه، فلا تجد من يفعل، ولا يستطيع أحد أن يفعل. كل امرئ مشغول بما على ظهره.

﴿وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾.

القراية التي كانت في الدنيا موضع النجدة والتناصر لا تستطيع يومئذ أن تنقل حسنة أو تحمل سيئة إلا بما يأذن الله. قد يكون المدعو أباً أو ابناً أو أخاً أو زوجاً؛ لكن هول الموقف يقطع أسباب الاعتماد التي كان الإنسان يتكى عليها.

لا يعني ذلك أن الروابط تنعدم قيمتها؛ فدعاء الصالحين وشفاعة الشافعين بإذن الله حق. لكن الآية تهدم اتكال الإنسان على نسبه مع فساد عمله. لا تقل: أنا ابن صالح، أو من أسرة كريمة، أو من جماعة ترفع شعار الحق. فالقراية قد تدلّك على الطريق، لكنها لا تمشيه عنك.

ثم يقول الله لنبيه ﷺ: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ﴾.

الإنذار يُسمع بآذان كثيرة، لكن الذي ينتفع به هو من في قلبه استعداد للخشية. ليس لأن الرسالة لم تصل إلى غيره، بل لأن قلبه وحده فتح بابها.

والخشية بالغيب هي أن تخاف الله وتراقبه وأنت لا تراه، وأن تستحضر حسابه حين يغيب عنك نظر الناس. هنا يظهر صدق الإيمان؛ فالإنسان يستطيع أن يصنع أمام الجمهور هيئةً صالحة، لكن الذي يكشف حقيقته هو سلوكه حين ينفرد بنفسه.

قد يترك المرء الذنب لأنه يخشى الفضيحة، وهذه حراسة اجتماعية؛ أما المؤمن فيتركه ولو ضمن ألا يراه بشر، لأن الغيب عنده ليس غيابًا، ولأن الله الذي لا تراه يراك.

﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾

اقتترنت الخشية بالصلاة؛ لأن الخشية الباطنة تحتاج إلى صورة تحفظها في الحياة. والصلاة ليست حركات تؤدى ثم تنتهي، بل إقامة متكررة للعلاقة مع الله. خمس مرات يُنزع الإنسان من ضجيج الدنيا ليقف فقيرًا أمام الغني، ويضع جبهته على الأرض حتى لا ترفعه أو هام نفسه فوق مقام العبودية.

﴿وَمَنْ تَزَكَّى فَإِنَّمَا يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ﴾

التزكي هو تطهير النفس وتنميتها بالإيمان والطاعة والتخلية عن الرذائل. ومن تطهر فإن ثمرة طهارته تعود إليه. لا يطهر المرء ملك الله من نقص، بل يطهر قلبه من أدرانته. ولا تزيد عبادته في سلطان الله، بل تزيد في نفسه نورًا وقدرةً على النجاة.

وهذه الآية تحرر العمل الصالح من الإحساس بالمنة. أنت حين تصلي أو تصدق أو تغفو لا تمنح الله شيئاً؛ أنت تنقذ نفسك. والطبيب الذي يعطيك الدواء لا ينتفع بشربك له، وإنما تعود العافية عليك.

﴿وَأِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾.

مهما تشعبت الطرق فهي تنتهي إليه. قد يمضي الإنسان إلى المال، أو الشهرة، أو اللذة، أو المعرفة، لكن في نهاية كل طريق باب واحد: المصير إلى الله.

وما دام المصير إليه، فالتزكية ليست ترفاً أخلاقياً، بل استعداد للقاء.

﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ﴾ (١٩)

﴿وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ﴾ (٢٠)

﴿وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ﴾ (٢١)

﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ ۗ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ﴾ (٢٢)

تتتابع المقابلات في إيقاع حاسم: أعمى وبصير، ظلمات ونور، ظل وحرور، أحياء وأموات. ليست ألفاظاً متجاوزة فحسب، بل موازين تُرد إليها الفروق التي يحاول العالم تسويتها.

﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ﴾.

العمى هنا يتجاوز فقدان البصر إلى عمى القلب. فقد ترى العين أشكال الأشياء، ولا ترى معناها؛ ترى المطر ولا ترى الرحمة، وترى الموت ولا ترى المصير، وترى الظالم يعلو فلا ترى يد الله تمهله ولا تمهله.

والبصير ليس من يحفظ الأدلة فحسب، بل من تهديه الأدلة إلى مدلولها. ينظر إلى الكون فلا يتوقف عند سطحه، بل يعبر منه إلى خالقه. ويرى النعمة فتتقلبه إلى الشكر، ويرى العيب في نفسه قبل أن يفتش عنه في الآخرين.

ليس كل من فتح عينيه مبصرًا، ولا كل من فقد بصره أعمى. قد يحمل الكفيف في قلبه من النور ما يهدي به المبصرين، وقد يمشي صحيح العينين في الدنيا وهو لا يعرف إلى أين يمضي.

﴿وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ﴾.

جاءت الظلمات جمعًا، والنور مفردًا؛ لأن طرق الباطل كثيرة، أما الحق في أصله فواحد. للهوى ألف مخرج، وللكذب ألف قصة، وللضلال مسالك تتفرق بأهلها؛ أما نور الله فيجمع القلوب على جهة واحدة.

الظلمة لا تحتاج إلى أن تُصنع؛ يكفي أن يُحجب النور. وهكذا يبدأ كثير من الضلال: لا يدخل الباطل القلب دفعة واحدة، وإنما يُحجب عنه مصدر الهداية، ثم تتكاثر في داخله الظلال.

والنور لا يغير الموجودات، لكنه يكشفها. كانت الحفرة في الطريق موجودة قبل طلوع الفجر، لكن الضوء هو الذي جعلك تراها. وكذلك الوحي لا يخلق قبح الظلم أو جمال الرحمة؛ بل يكشف للإنسان حقائق الأشياء التي غطاها الهوى.

﴿وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ﴾.

الظل موضع الراحة والسكينة، والحرور شدة الحر التي تؤذي وتحرق. والإيمان ظل الروح؛ يأوي إليه الإنسان حين تلهبه أسئلة الوجود ومخاوفه. ليس لأنه يعفيه من الألم، بل لأنه يمنحه معنى يحتمل به الألم.

قد يعيش المؤمن في محنة ويكون قلبه في ظل، ويعيش الغافل في وفرة وقلبه في حرور. فالراحة ليست دائمًا في تبدل الظروف، بل قد تكون في تبدل الموضع الذي تقف فيه الروح من الظروف.

من عرف الله لم تنطفئ في حياته الأحران، لكنها لم تعد نارًا بلا غاية؛ صارت طريقًا للصبر، وبابًا للدعاء، ومساحة ينضج فيها القلب.

﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ﴾.

وهنا تبلغ المقابلات ذروتها. المؤمن حي، ولو كان جسده ضعيفًا؛ لأنه يستجيب للحق، ويتألم للذنب، ويفرح بالطاعة، ويتحرك نحو غاية. أما المعرض فقلبه ميت، ولو ضج جسده بالحركة؛ لأنه لا يسمع النداء الذي خلق من أجله.

حياة القلب ليست كثرة الانفعال؛ فقد يضحك الميت القلب ويغضب ويشتهي وينافس، لكنه يتحرك في دائرة الغريزة، لا في أفق الهداية. الحياة الحقيقية أن يستجيب فيك شيء حين يذكر الله، وأن يحدث الوحي في أعماقك فرقاً، وأن تستطيع العودة بعد الخطأ.

أما القلب الذي يسمع الآيات فلا يخشع، ويرى النعم فلا يشكر، ويمر بالقبور فلا يعتبر، فقد تعطلت فيه الوظائف التي من أجلها مُنح الوعي.

﴿إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ﴾.

ليس المقصود مجرد وصول الصوت إلى الأذن، بل سماع القبول والانتفاع. قد يسمع اثنان الآية نفسها، فتفتح لأحدهما حياة جديدة، وتمر على الآخر كأنها لم تُتْل. الكلمات واحدة، لكن القلوب ليست واحدة.

والله يهدي من علم فيه طلب الحق وإرادة الهدى، ويفتح قلب من أقبل عليه؛ فلا يملك الداعية مفاتيح الصدور، مهما بلغ بيانه.

﴿وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ﴾.

شُبِّهَ المعرضون بأهل القبور؛ لأن من مات قلبه لا يستجيب لنداء الهداية، كما لا يستجيب أهل القبور لخطاب الأحياء استجابة قبول وعمل. وليس في الآية انتقاص من قدرة النبي ﷺ على البيان؛ بل تحديد لوظيفته، فالرسول يبلغ، أما خلق السمع في القلب فإلى الله.

وفيها مواساة لكل من أخلص في النصيح ثم لم ير أثره: ربما كان الخلل في موضع الاستقبال، لا في صدق الرسالة. لا تطرق على القلب الميت حتى تحطم يديك، ولا تجعل عناده اتهامًا دائمًا لبيانك. قل الحق بحكمة، ثم سل الله أن يحيي به من يشاء.

وهكذا ترسم الآيات ميزانًا لا يسمح بتزويب الفروق: لا يستوي من يرى ومن يعمى، ولا الهداية والضلال، ولا طمأنينة الإيمان واحتراق البعد، ولا القلب الحي والقلب الميت.

قد تحاول الدنيا أن تخبرك أن الجميع سواء، وأن الحق والباطل وجهتا نظر متعادلتان، وأن المهم أن يعيش كل إنسان وفق ما يشتهي؛ لكن القرآن يرد الأشياء إلى حقائقها. فاحترام الإنسان لا يعني تصحيح كل ما

يختاره، والرحمة بالضال لا تعني تسمية ضلاله هداية.

إن الفروق الأخلاقية ليست حواجز صنعها الوعظ، بل حقائق كونية كالفارق بين النور والظلمة، والظل والحرور، والحياة والموت.

غير أن باب الرجاء لا يُغلق؛ لأن الميت الذي لا يقدر البشر على إسماعه قادر الله على أن يحييه. وما دام القلب ينبض، فقد يرسل الله إليه ريحًا تثير سحبًا، ثم يسوقه إلى أرضه المقفرة، فإذا ما حسبه الناس قبرًا ينشق عن حياة.

الفصل الخامس

ألوان الجبال وخشوع العلماء

الآيات: ٢٣-٣٠

﴿إِنْ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ﴾ (٢٣)

بعد أن شبّهت الآية السابقة القلوب المعرضة بمن في القبور، جاء هذا البيان ليضع الرسالة في حدودها التي أرادها الله: ﴿إِنْ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ﴾.

إن النبي ﷺ نذير، يوقظ النائم قبل أن تصل النار، وينادي السائر قبل أن تنتهي الطريق إلى الهاوية. والإنذار في جوهره رحمة؛ لأن من يحبك لا يتركك تمضي نحو الخطر صامتاً.

ليس الرحيم من يحدثك دائماً بما يريحك، بل من يقول لك الحقيقة في الوقت الذي ما يزال بإمكانك أن تغير فيه مصيرك. قد تؤلمك كلمة الإنذار لحظة، لكنها تنقذك من ألم لا ينتهي.

والنذير لا يصنع الخطر الذي يحذر منه؛ إنما يكشفه. فالرسول ﷺ حين يحدث الناس عن الحساب والنار لا يريد أن يضيق عليهم حياتهم، بل يريد أن يحررهم من غفلة تجعلهم يكتشفون الحقيقة بعد فوات زمن الاختيار.

وفي كلمة ﴿إِلَّا﴾ حصر يرفع عن قلب الرسول ﷺ ما ليس من تكليفه. عليه أن ينذر، لا أن يقتحم القلوب، ولا أن يجبر الناس على النجاة. إن حمل الدعوة ثقل، لكنه يصبح مستحيلاً إذا حمل الداعية نفسه مسؤولية النتائج التي لم يجعلها الله في يده.

بعض الناس يريد من صاحب الحق أن يضمن استجابة الجميع، ثم يلومه إذا أعرضوا. لكن الله، وهو أعلم بخلقه، لم يكلف رسوله إلا البيان. فالهداية ليست مهارةً خطابية محضة، وإنما فتح من الله واستجابة من القلب.

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۖ وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ (٢٤)

لم يأت الرسول ﷺ من تلقاء نفسه، ولم يخترع رسالته استجابةً لحاجة اجتماعية عابرة؛ بل قال الله: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ﴾. إنه موفد من السماء، يحمل أمانة لا يملك أن يبدل منها شيئاً ليوافق أهواء الأرض.

﴿بِالْحَقِّ﴾.

الحق هو مادة الرسالة ولباسها وغايتها. أُرسل بالحق من عند الحق، ليقوم حياة الناس على الحق. وما دام مصدر الرسالة هو الله، فإنها لا تحتاج إلى أن تستعير مشروعيّتها من رضا عصر أو تصفيق جمهور.

وقد تغيّر المجتمعات أسماء أخطائها، وتمنح أهواءها ألقاباً براقة، لكن الحق لا يشيخ حين تتغير الأزياء الفكرية. إنه لا يعيش بحدّاث الناس حتى يموت بتقادمها؛ لأنه سابق لأزمّنتهم، حاكم عليها، ممتد بعدها.

﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾.

جمعت الرسالة بين البشارة والإنذار، لأن القلب لا يسير إلى الله بجناح واحد. يحتاج إلى رجاء يفتح له الأفق، وخوف يحرس خطاه. فإذا غلب الإنذار حتى

غابت البشارة، تحولت العبادة إلى فزع يائس؛ وإذا غلبت البشارة حتى اختفى الإنذار، تحولت الرحمة إلى ذريعة للتفريط.

النبي ﷺ يبشر التائب بأن الماضي لا يغلق باب المستقبل، ويبشر المحسن بأن خيره لا يضيع، ويبشر المنكسر بأن له ربًّا يجبره، ويبشر المؤمن بجنة لا يمر عليها فناء. ثم ينذر المستكبر من عاقبة كبره، والظالم من يوم رد المظالم، والغافل من صحوه تأتي بعد أن تُرفع صحائف العمل.

إن البشارة تقول لك: أمامك جنة؛ والإنذار يقول: فلا تنحرف عن طريقها.

﴿وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾.

لم يترك الله الأمم بلا تذكير وحجة. تعاقب النذر على تاريخ الإنسان؛ لأن رحمة الله سبقت مؤاخذته، فلا يعاقب قومًا حتى يقيم عليهم الحجة.

قد نعرف أسماء بعض الأنبياء والرسل، ويغيب عنا أكثرهم، لكن الآية توسع رؤيتنا لتاريخ النبوة. وراء الأسماء المذكورة في القرآن قوافل لا نعرف

تفاصيلها، مرّت على شعوب اندثرت لغاتها، ووقفت في قرى محتها السنون، وقالت للناس الحقيقة نفسها: اعبدوا الله واتقوه.

والتاريخ في المنظور القرآني ليس تاريخ ملوك وحروب وإمبراطوريات فقط؛ بل هو تاريخ نداء إلهي ظل يلاحق الإنسان في أزمنته كلّها. خلف ضجيج السيوف والعروش كان هناك دائماً صوت نذير يعيد السؤال إلى أصله: من ربكم؟ وإلى أين تصيرون؟

﴿وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ﴾ (٢٥)

تعود المواساة مرة أخرى، لأن جرح التكذيب يتجدد. قد يعرف الإنسان أن غيره ابتلي بما ابتلي به، لكنه يحتاج كلما نزع الجرح إلى من يذكره أن ألمه ليس علامة على فشل طريقه.

﴿وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾.

يُكَذِّبُ النبي ﷺ لا لنقص في صدقه، فقد عرفوه أميناً قبل الرسالة، ولا لاضطراب في بيانه، فقد جاءهم بالقرآن الذي بهر بلغاءهم؛ وإنما لأن تصديقهم به كان

يقتضي انقلاباً في حياتهم. عليهم أن يتركوا آلهتهم ومكاسبهم المحرمة وموازين تفاضلهم الباطلة، وأن يقف السيد والعبد أمام إله واحد.

كثير من الناس لا يرفض الدليل لأنه ضعيف، بل لأن النتيجة التي يقوده إليها ثقيلة على هواه. فيطلب من البرهان مزيداً من الوضوح، مع أن المشكلة ليست في نور البرهان، بل في أنه يكشف ما لا يريد أن يراه.

﴿جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾

البيّنات هي الحجج الواضحة والمعجزات الدالة على صدق الرسل. لم يطلب الله من الناس إيماناً أعمى، بل أقام أمامهم من الشواهد ما يكفي طالب الحق. لكن البرهان لا يعمل في القلب كما تعمل القوة في المادة؛ فهو لا يُكره المتكبر على الإذعان، بل يفتح له باباً، ثم يترك اختياره شاهداً عليه.

﴿وَبِالْزُّبْرِ﴾؛ أي بالكتب المكتوبة التي تضمنت المواعظ والحكم والهداية. ﴿وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ﴾؛ الكتاب الذي ينير للإنسان طريقه، ويكشف له حقائق الوجود والمصير.

وما أجمل وصف الكتاب بأنه منير! فالكتاب المنزل لا يقدم معلومات باردة، بل يحمل نورًا. والمعلومة قد تملأ الذاكرة وتترك القلب كما كان، أما النور فيغيّر طريقة الرؤية. بعده لا تعود الأشياء هي الأشياء نفسها؛ ترى الدنيا أقصر، والآخرة أقرب، والذنب أشد ظلمة، والطاعة أوسع حياة.

لقد جاءتهم الحجج والكتب والنور، ومع ذلك كذبوا. وفي هذا كشف لحدود المعرفة إذا لم يصحبها تواضع أخلاقي. قد يعرف الإنسان ثم يعاند، وقد يرى ثم ينكر ما رأى، لأن المعرفة وحدها لا تنتقذ قلبًا عقد ولاءه للهوى.

﴿ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ (٢٦)

بين التكذيب والأخذ جاءت ﴿ثُمَّ﴾، وفيها مهلة. لم يأخذهم الله عند أول كلمة كفر، بل أرسل وأنذر وأقام البيّنات وأمهل. مرّت بينهم فرص للرجوع، وانفتحت أبواب للتوبة، وتكرر النداء.

لكنهم فهموا الإهمال على أنه إهمال، وظنوا أن تأخر العقوبة دليل على عدم مجيئها. وهذه من أخطر خدع الزمن؛ فالفاصل بين الذنب والجزاء يمنح الغافل وهم الانفصال بينهما. يزرع اليوم ثم ينسى ما زرع، فإذا جاء الحصاد تعجب من الثمر.

﴿ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾.

الأخذ يوحي بالقوة والحسم؛ فحين يأتي أمر الله لا يفلت منه من ظن أنه تحصن بالأسباب. أين القوة التي كانوا يستعلون بها؟ وأين الجماهير التي صفقت لهم؟ وأين الآلهة التي زعموا أنها ستنصرهم؟

﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾.

سؤال يضع السامع أمام آثار الأمم. كيف كان إنكاري عليهم وعقابي لهم؟ انظروا إلى الديار الخالية، واسألوا الأعمدة المنكسرة عن أهلها، وتأملوا كيف تحولت الحضارات التي كانت تملأ السمع والبصر إلى عظة.

ونكير الله ليس انفعالاً طارئاً، تعالى الله عن ذلك، بل جزاء عدل بعد حجة وإمهال. إنه وضع الأشياء في نصابها حين رفض الظالمون كل فرصة للعودة.

والسؤال لا يُطرح على التاريخ وحده، بل على الحاضر أيضاً: لا تجعلوا المسافة الزمنية بينكم وبين الهالكين توهمكم أن السنن تغيرت. قد تتغير الأدوات والأبنية واللغات، لكن الكبر هو الكبر، والظلم هو الظلم، وعاقبة الإعراض لا تتحول لأن الإنسان أعاد تسمية خطيئته.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيَضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾ (٢٧)

بعد آثار الهلاك، يأخذنا القرآن إلى معرض الحياة والألوان: ماء ينزل، وثمرات تخرج، وجبال تتوشح بالأبيض والأحمر والأسود.

﴿الْم تَرَ﴾.

إنها دعوة إلى رؤية لا تقف عند العين. فالمشهد يراه المؤمن والكافر، لكن القرآن يريد أن ينتقل الإنسان من رؤية الظاهرة إلى شهود الدلالة. ليس المهم فقط أن ترى المطر، بل أن ترى أن الله أنزله؛ ولا أن ترى الثمرة، بل أن تدرك اليد التي أخرجتها.

﴿أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾.

ماء واحد، بلا لون تقريبًا، ينزل على أرض واحدة؛ ثم يخرج منه عالم لا تكاد الألوان فيه تنتهي: أحمر وأصفر وأخضر، داكن وفاتح، وثمرات تتفاوت في الطعم والرائحة والحجم والملمس.

﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا﴾.

الوحدة في المصدر لم تمنع التنوع في الأثر. وهذا التنوع ليس فوضى، بل توقيع من توقيعات القدرة. لو

كان الكون بلون واحد وصوت واحد وصورة واحدة
لضاقت به النفس؛ فجعل الله اختلاف الألوان بابًا من
أبواب الجمال، ودليلاً على أن القدرة لا تعجزها كثرة
الصور.

وفي كلمة ﴿ثَمَرَاتٍ﴾ إichاء بأن عطاء الله لا يكتفي
بإبقاء الحياة، بل يجمّلها. كان يمكن أن يكون الطعام
مادة واحدة تؤدي وظيفة التغذية، لكن الله جعله ألوانًا
ونكهات وروائح؛ لأن الإنسان لم يُخلق للمحافظة على
جسده وحده، بل أودعت فيه روح تتذوق الجمال.

ثم يرتفع النظر من الثمار القريبة إلى الجبال الراسخة:
﴿وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيَضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا
وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾.

الجُدَد جمع جُدَّة، وهي الطرائق والخطوط الظاهرة
في الجبال. ترى في الجبل الواحد عروقًا بيضاء،
وأخرى حمراء مختلفة الدرجات، وصخورًا شديدة
السواد.

الجبـال الـتي تـبدو من بـعيد كـتلاً صـماء تـحمل فـي داخـلها تـاريخاً من الـألوان والطـبقات. وكـأن الأرض لـيست بـساطاً خُلق للمـنفعة فـقط، بـل لـوحة هـائلة رُسمت الصـخور فـيها بـخطوط لا تـتكرر.

﴿وَعَزَّابِيبٌ سُوْدٌ﴾؛ أي شـديدة السـواد. قـدّم الوصف الـأبلغ فـي السـواد لـزيادة التـأكيد، حـتى تـكاد الـكلمة نـفسها تـحمل كـثافة اللـون.

ومن الثـمرة الرقيقـة إـلى الجـبل الصـلب، يـعمل قـانون التـنوع. فـالفـاطر الـذي أـبدع أـصل الأـشياء لـم يـجعلها نـسخاً مـتشابهة؛ بـل وزـع بـينها الخـصائص، حـتى صـار الـاختلاف نـفسه آية.

إن العـين المـادية تـسأل: مـم تـتكون هـذه الـألوان؟ والعـين المـؤمنة تـضيف سـؤالاً آخـر: مـن الـذي جـعل لـلمادة قابليـة أن تـكون كـل هـذا الجـمال؟ العـلم يـشرح الـآلية، لـكنه لا يـلغي الدـلالة؛ بـل كـلما كـشف تـفاصيل الـآلية، اتـسع مـيدان الدـهشة.

﴿وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَأَلْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ ۖ
إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾
(٢٨)

لا يقف التنوع عند الثمرات والجبال، بل يمتد إلى
الأحياء: ﴿وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَأَلْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ
كَذَلِكَ﴾.

وجوه البشر مختلفة، وألوانهم متعددة، وبصماتهم لا
تتطابق، وأصواتهم تحمل لكل واحد نبرة تخصه.
خرجوا جميعاً من أصل واحد، ويعيشون على أرض
واحدة، لكن الفاطر منح كل إنسان علامة تقول: لست
نسخة مكررة.

والاختلاف في اللون ليس سلماً للتفاضل؛ لأنه فعل
الله، لا كسب الإنسان. فلا فضل للمرء في لون لم
يختره، ولا نقص فيه بسبب هيئة لم يصنعها. إن
تحويل التنوع الذي جعله الله آيةً للجمال إلى ذريعة
للاحتقار هو فساد في قراءة الخلق.

وفي الدواب والأنعام من اختلاف الصور والألوان ما يدهش المتأمل؛ من مخلوقات دقيقة تكاد العين لا تدركها إلى أجسام ضخمة، ومن حيوان يكسوه لون واحد إلى آخر تزيينه خطوط وبقع، وكلها خارجة من مشيئة واحدة لا تنفذ صورها.

ثم تأتي الجملة التي تبلغ بها السورة إحدى ذراها: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾.

جاء الحديث عن خشية العلماء بعد مشاهد الماء والثمرات والجبال والناس والدواب؛ فكأن العلم المقصود ليس حفظ ألفاظ مجردة، بل معرفة تقرأ آيات الله في الوحي والكون حتى تنتهي بصاحبها إلى الخشية.

العالم حقاً ليس من ازدحمت ذاكرته بالمعلومات فحسب، بل من أورثه علمه معرفةً بعظمة الله، ومعرفةً بضعف نفسه، ومراقبةً له في السر والعلن. كلما اتسعت معرفته، اتسع في قلبه مقام الهيبة.

فالحشية خوف مقرون بمعرفة؛ ولهذا تختلف عن الفرع المجهول. يخشى العالم ربّه لأنه رأى من آثار قدرته ما عظم الله في قلبه، وعرف من كمال علمه ما جعله يستحي أن يراه حيث نهاه، وعرف من رحمته ما أبقى خشيته موصولةً بالرجاء.

و﴿إِنَّمَا﴾ تفيد الحصر؛ أي إن أكمل الناس خشيةً لله هم العلماء به وبأمره وآياته. فمن ازداد علمًا ولم يزد تواضعًا وخشية، فليفتش في حقيقة ما تعلم؛ ربما حمل معلومات، لكنه لم يبلغ مقام العلم الذي يريده القرآن.

العلم الذي يورث الكبر وقف عند سطح الأشياء؛ أما العلم الذي نفذ إلى حقيقتها، فيجعل صاحبه أكثر انحناءً أمام عظمة الخالق. فكل جواب يكتشفه يفتح له أبوابًا من الأسئلة، وكل سر يبلغه يريه محيطًا من الأسرار التي لم يبلغها.

وخشية العلماء ليست انسحابًا من العالم، بل وعي أخلاقي يحرس تعاملهم معه. العالم الخاشي لا يجعل معرفته أداةً للإفساد، ولا يبيع فتواه، ولا يخفي حقيقة طلبًا لرضا سلطان، ولا يتعامل مع الكون كأنه مادة بلا أمانة.

﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾.

هو عزيز يوجب أن يُخشى، وغفور يفتح باب الرجاء لمن خشيه ثم زل. فلا تتحول الخشية إلى قنوط؛ فالذي لا يُغالب في سلطانه هو نفسه الذي يغفر لعباده.

إن العزة بلا ذكر المغفرة قد تملأ القلب رعباً، وذكر المغفرة بلا العزة قد يفتح باب الاغترار؛ فجاء الاسمان معاً ليبقى المؤمن بين هيبة تطهره ورحمة تأويه.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّنْ تَبُورَ﴾ (٢٩)

بعد الحديث عن العلماء الخاشين، ترسم الآية صورة حياتهم: تلاوة، وصلاة، وإنفاق. فالعلم الذي صنع الخشية لم يبق في العقل، بل نزل إلى اللسان والجوارح والمال.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ﴾.

التلاوة ليست مرور الصوت بالحروف وحدها؛ بل اتباع واقتفاء. يتلون كتاب الله بالأسنتهم، ويتبعون هدايته في حياتهم. يقرأون الآية، ثم يسمحون لها أن تقرأهم؛ تكشف عيوبهم، وتصحح موازينهم، وتهدم في داخلهم ما لا يرضي الله.

قد يفتح الإنسان المصحف لبحث عن معنى، ثم يجد أن المعنى كان يبحث عنه. تأتي الآية إلى جرح لم يخبر به أحداً، أو سؤال أخفاه، أو غفلة استقرت طويلاً، فتضع يدها عليه كأنها نزلت في تلك اللحظة من أجله.

كتاب الله لا يُستنفد؛ يعود إليه القارئ بعد سنوات فيجد فيه ما لم يجده من قبل، لا لأن النص تغير، بل لأن قلبه وتجربته وأسئلته تغيرت. والبحر الواحد يعطي كل غائص على قدر عمقه.

﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾.

من التلاوة إلى الصلاة؛ فالقرآن خطاب الله لعبده،
والصلاة مناجاة العبد لربه. وبين الخطاب والمناجاة
تُبنى الصلوة. يسمع العبد في الكتاب ما يريد الله منه،
ثم يقف في الصلاة يحمل ضعفه وافتقاره إليه.

ولم يقل: صلوا فحسب، بل ﴿أَقَامُوا﴾؛ أي حفظوا
حدودها وأوقاتها وخشوعها، وأقاموا أثرها في
حياتهم. الصلاة القائمة هي التي تقيم صاحبها إذا مال،
وتردّه إذا شرد، وتمنعه أن يعيش يومه كله غائباً عن
الله.

﴿وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾.

لم يقل: من أموالهم، بل نسب الرزق إلى نفسه
سبحانه. ما تنفقه ليس ملكاً مستقلاً صنعته وحدك؛ إنه
من رزق الله الذي استخلفك فيه. وحين تعطي الفقير،
فأنت لا تتفضل عليه من أصل ذاتك، بل توصل إليه
شيئاً من فضل الله مرّ عبر يدك.

وكلمة ﴿مِمَّا﴾ تبقي للإنسان ما تقوم به حياته؛ فالدين
لا يأمره أن يضيع من يعول، وإنما أن يحرر قلبه من
الاستئثار، وأن يجعل في رزقه منفذاً إلى المحتاجين.

﴿سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾.

ينفقون سرًّا حين يكون السر أقرب إلى الإخلاص وأصون لكرامة الفقير، وينفقون علانيةً حين تكون العلانية قدوةً وتحريضاً على الخير، مع سلامة القلب من الرياء. فليست الفضيلة في خفاء العمل دائماً أو إظهاره دائماً، بل في أن يكون كل واحد منهما حيث يرضي الله.

السر يختبر صدق العلاقة بالله؛ إذ تعمل ولا يراك من الناس أحد. والعلانية تختبر صدق التجرد؛ إذ يراك الناس ولا تجعل رؤيتهم غاية عملك.

﴿يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّنْ تَبُورَ﴾.

سمّى الله أعمالهم تجارةً؛ لأنهم قدموا شيئاً ينتظرون عليه عوضاً، لكن يا لعظمة الفارق بين تجارة الدنيا وتجارة الآخرة! تجارة الدنيا قد تربح وتخسر، وقد تكسد السلعة، ويتغير السوق، ويغدر الشريك، ويضيع رأس المال. أما هذه فتجارة ﴿لَّنْ تَبُورَ﴾.

رأس مالها عمر كان سيمضي على كل حال،
وبضاعتها تلاوة وصلاة وإنفاق، ومشتريها هو الله،
وربحها أبدي.

في الدنيا يخاف التاجر من تلف بضاعته، أما العمل
المخلص فمحفوظ عند من لا يضيع عنده شيء. قد
تنسى دمة خشية نزلت في ليلة بعيدة، أو صدقة
وضعتها في يد محتاج، أو آية تلوّتها وقلبك منكسر؛
لكنها دخلت تجارة لا تعرف الكساد.

والمؤمن يتاجر مع الله لا بمعنى العلاقة المادية
الجافة، بل بمعنى الثقة بوعده. يبذل الفاني لياخذ
الباقي، ويمنح القليل فيرد الله عليه بالكثير، ويودع
عمله في الغيب وهو على يقين أن خزائن الغيب لا
تفلس.

﴿لِيُؤْفِقَهُمْ أَجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ ۚ إِنَّهُ غَفُورٌ
شَكُورٌ﴾ (٣٠)

﴿لِيُؤْفِقَهُمْ أَجُورَهُمْ﴾؛ فلا ينقص من أعمالهم شيء. كل
حركة طاعة، وكل مقاومة لهوى، وكل صبر أخفاه
صاحبه، وكل خير لم يصفق له أحد؛ محفوظ لئوفى.

وفي الدنيا قد يعمل الإنسان فلا ينال حقه، وقد يزرع فيحصد غيره، وقد يمضي أثره وينسى الناس اسمه. أما عند الله فلا تضيع الحقوق في الزحام، ولا تختلط الصحائف، ولا يذهب جهد المغمر لأن الأضواء كانت على غيره.

لكن العطاء لا يقف عند حدود الاستحقاق: ﴿وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾.

التوفية عدل، والزيادة فضل. يعطيهم ثواب أعمالهم كاملاً، ثم يمنحهم فوق ما عملوا. لأن أعمال العباد مهما عظمت محدودة بأعمارهم وقدراتهم، أما نعيم الجنة فأبدي؛ ولا يصل المحدود إلى الأبدي إلا بجسر الفضل.

نحن ندخل على الله بأعمال ناقصة: صلاة شرد فيها الفكر، وصدقة خالطها شيء من حب المحمدة، وتوبة تلتها عثرة. ولو عوملنا بمقدار كمال أعمالنا لافتقرنا، لكن الله يغفر النقص، ويقبل الصدق، ويضاعف الحسنة، ثم يزيد من فضله.

﴿إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾.

يغفر التقصير، ويشكر اليسير. والشكور في حق الله هو الذي يثيب على القليل كثيرًا، ويقبل العمل ويضاعفه، ويثني على عبده مع أنه هو الذي وفقه إليه.

ما أكرم هذا الرب! يعطيك القدرة على الطاعة، ثم يوفّقك لفعلها، ثم يقبلها منك، ثم يسمي جزاءه عليها شكرًا، ثم يضاعفها، ثم يغفر ما خالطها من نقص.

والعبد هو المحتاج في أول الطريق وآخره، لكن الله يعامله بفضل يشعره بكرامته. لا يقول له: عملك لا قيمة له لأنني غني عنك؛ بل يحفظ عمله، ويشكره عليه، ويزيده من فضله.

وهكذا يبلغ الفصل مشهده الجامع: الماء ينزل واحدًا، لكنه يخرج ثمرات مختلفة الألوان؛ والجبال تتعدد خطوطها، والناس والدواب والأنعام تتنوع هيئاتها؛ ثم وسط هذا التنوع يظهر صنف واحد بلغ غاية الرؤية: العلماء الذين قادتهم معرفة الخلق إلى خشية الخالق.

فالعلم في سورة فاطر ليس تكديسًا للمعلومات، بل عبور من اللون إلى الملون، ومن النظام إلى المدبر، ومن الكتاب المنظور إلى الكتاب المسطور. فإذا لم يقد العلم صاحبه إلى خشوع، فقد وصف الأشياء ولم يبلغ معناها.

والعلماء الخاشعون لا يقفون عند الدهشة؛ بل يتلون كتاب الله، ويقىمون الصلاة، وينفقون مما رزقهم. إنهم يحولون المعرفة إلى عبادة، والعبادة إلى رحمة، والرحمة إلى تجارة لا تبور.

وهنا تكتمل حركة النور: كتاب منير أنزلته السماء، وعالم أبصر نوره، وخشية استقرت في قلبه، وصلاة أقامت روحه، وإنفاق وصل خيرته إلى الناس، ثم أجر يوفيه الله، وفضل يزيده، ومغفرة تمحو نقصه.

ذلك هو العلم حين يبلغ غايته: ألا يجعل الإنسان أكثر امتلاءً بنفسه، بل أكثر افتقارًا إلى ربه؛ حتى إذا اتسعت معرفته، ضاق في قلبه موضع الكبر، وصارت اللغة في داخله أقل كلامًا أمام الجلال، وأكثر سجودًا أمام المعنى.

الفصل السادس

ورثة الكتاب ودار لا يمس أهلها الحزن

الآيات: ٣١-٣٥

﴿وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾ (٣١)

بعد أن تحدّثت الآيات عن الذين يتلون كتاب الله ويرجون تجارة لن تبور، تعود إلى الكتاب نفسه: ما حقيقته؟ ومن أين جاء؟ ولماذا يستطيع أن يصنع في القلب كل هذا التحول؟

﴿وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ﴾.

جاء القرآن وحيًا، لا تجربة ذاتية نضجت في نفس النبي ﷺ، ولا عبقرية لغوية بلغت ذروتها، ولا استجابة بشرية لأسئلة المجتمع. إنه من عند الله، نزل به الروح الأمين على قلب الرسول ﷺ ليكون من المنذرين.

والتعبير بـ﴿أَوْحَيْنَا﴾ يرد القرآن إلى مصدره الأعلى. فالذي يخاطب الإنسان في هذا الكتاب هو خالقه؛ الأَلم بتكوينه، وأوجاعه، وضعفه، وما يصلحه وما يفسده. ومن هنا تأتي للكلمة القرآنية قدرتها العجيبة على بلوغ مواضع في النفس قد لا يبلغها صاحبها نفسه.

قد يجهل الإنسان حقيقة ما يشعر به، ثم تأتي آية فتسمي ألمه، وتكشف خداعه لنفسه، وتضع يده على الجرح والدواء معًا. وليس ذلك عجيبيًا؛ فالذي أنزل الكتاب هو الذي خلق القلب.

﴿هُوَ الْحَقُّ﴾.

ضمير الفصل يقوي المعنى ويثبتته: هو الحق لا مريية فيه. حق في مصدره، وحق في خبره، وحق في حكمه، وحق في وعده ووعيده، وحق في تصويره للإنسان والدنيا والآخرة.

والحق لا يعني أنه يقدم للإنسان دائماً ما يوافق رغبته؛ بل يقدم له ما يطابق حقيقة وجوده، ولو خالف هواه. الطبيب الصادق لا يغيّر التشخيص كي يرضى المريض، والقرآن لا يغيّر ميزان الخير والشر كي ينسجم مع أذواق الناس المتقلبة.

إن الإنسان المعاصر كثيراً ما يريد نصّاً يبارك اختياراته، لا كتاباً يحاكمها. يريد من الوحي أن يقف شاهداً في محكمته، بينما جاء الوحي ليكون هو الميزان الذي تُعرض عليه المحاكم والمفاهيم والعصور.

وحين يقول الله عن كتابه إنه الحق، فإن أزمات الإنسان الفكرية لا تتحول إلى معيار يحاكم به الوحي؛ بل يصبح الوحي نوراً يحاكم به الإنسان اضطراباته. فالحق لا يستمد حقيقته من موافقة الزمن، وإنما يستمد الزمن رشدَه بمقدار اقترابه من الحق.

﴿مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾.

القرآن يصدق ما سبقه من الكتب الإلهية في أصول التوحيد والنبوة والآخرة والقيم الكبرى، ويشهد بأصل نزولها من عند الله، ويميز ما بقي من حقها مما دخل عليه من تحريف البشر.

فالرسالات ليست جزراً متخاصمة؛ بل روافد من مشكاة واحدة. اختلفت بعض الشرائع بحسب أحوال الأمم، لكن النداء في أصله واحد: الله ربكم فاعبدوه، واتقوا يوماً ترجعون فيه إليه.

والقرآن هو الحلقة الخاتمة والحاكمة في سلسلة الوحي؛ مصدق لما بقي من الحق، ومهيمن عليه، محفوظ بحفظ الله إلى نهاية رحلة البشر.

﴿إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾.

هو خبير ببواطنهم، بصير بظواهرهم؛ يعلم حاجتهم إلى هذا الكتاب، ويعلم أين يقع أثره، ومن يستقبله بقلب مفتوح، ومن يقرأه بعين تبحث عن الهداية، ومن يقترب منه وفي داخله قرار سابق بالرفض.

واختيار هذين الاسمين بعد الحديث عن الوحي عميق الدلالة: فالكتاب ليس توجيهاً صادراً عن معرفة عامة

بالإنسان، بل هو هداية من خبير بأدق خفاياه، بصير بحركته في التاريخ. يعلم فتنة القوة، ووحشة الفقر، ونزق الشهوة، وحيرة العقل، وانكسار الروح؛ فجاء القرآن واسعاً لاتساع الإنسان، عميقاً إلى الحد الذي لا تنتهي معه حاجته إليه.

والله خبير بصير بمن يحمل كتابه أيضاً؛ فلا تخدعه الألقاب، ولا يخفى عليه من جعل القرآن سلماً إلى الدنيا، ومن جعله جسراً إلى الله.

﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ إِذْنِ اللَّهِ ۚ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ (٣٢)

﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ﴾.

الميراث شيء ثمين ينتقل إلى من بعد صاحبه، والقرآن هو أجل ما ورثته هذه الأمة. لم ترث من النبوة قصوراً ولا خزائن، بل ورثت كلمة الله؛ نوراً يهدي، وميزاناً يعدل، وأمانةً ينبغي أن تحملها إلى العالم.

وحين يسمى الكتاب ميراثًا، فإن ذلك يوحي بحق يقابله واجب. الوارث لا يصنع الميراث، وإنما يتلقاه؛ لكن عليه أن يحفظه ويعرف قدره ويحسن القيام به. وليس حفظ القرآن بقاء حروفه في الصدور والسطور فحسب، بل أن يبقى سلطانه حيًّا في التصور والسلوك.

قد يبقى المصحف محفوظًا على الرف، بينما تُهجر موازينه في الحياة. وقد تتكرر تلاوته في المجالس، ثم يتحاكم الناس في قيمهم إلى غيره. وذلك نوع خفي من ضياع حق الميراث: أن تملك النص ولا تسمح له أن يملك توجيهك.

﴿الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾

إن حمل القرآن اصطفاء. اختار الله هذه الأمة لتتلقى الرسالة الخاتمة، لا لأن نسبها يمنحها تفوقًا ذاتيًا، بل لتقوم بوظيفة الشهادة والهداية. والاصطفاء تكليف قبل أن يكون تشريعًا؛ فكل منزلة يرفع الله إليها عبدًا تضع على كتفيه أمانة تناسبها.

من ظن أن الانتساب إلى أمة القرآن يمنحه النجاة بلا عمل، فقد أخذ من الاصطفاء زينته وترك تبعته. فالكتاب لا يحابي حامله إذا خالفه، ولا يتحول إلى تعويذة قومية تمنح العصمة لمن حمل اسمه.

ثم تكشف الآية أن الوارثين ليسوا على درجة واحدة:

﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ﴾.

بدأت بالظالم لنفسه؛ وهو المؤمن الذي خلط عملاً صالحاً وآخر سيئاً، وقصّر في بعض الواجبات أو ارتكب بعض المحرمات دون أن يخرج بذلك من أصل الإيمان. سمّاه ظالماً لنفسه؛ لأن المعصية لا تبلغ ضررها إلى ملك الله، وإنما يرد جرحها إلى صاحبها.

وما أدق التعبير: لم يقل ظالم لربه، فالله لا يضره شيء؛ ولم يقل مظلوم، لأن ما أصابه كان من كسبه؛ بل ﴿ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ﴾. يحمل النور، لكنه لا يمشي به دائماً، يعرف الطريق ثم يتعثر، يسمع النداء ثم يتأخر.

وإدخال هذا الصنف في الذين اصطفاهم الله من عباده يفتح باب الرجاء للعصاة من أهل الإيمان، لكنه لا يمنحهم أماناً من العقوبة ولا إدناً بالإقامة على التقصير. إنه رجاء يدعو إلى العودة، لا مخدة ينام عليها المسوّف.

﴿وَمِنْهُمْ مُّقْتَصِدٌ﴾.

والمقتصد هو الذي أدى الواجبات واجتنب المحرمات، وسار في طريق الاستقامة دون أن يبلغ مقام السبق في المستحبات وفضائل الأعمال. إنه في الطريق، ثابت الخطو، لم يترجع إلى الظلم، ولم يندفع إلى أعلى المراتب.

والاقتصاد هنا ليس ذمّاً؛ فهو نجاة واستقامة، لكنه يكشف أن أمام النفس آفاقاً أعلى. فقد يرضى الإنسان أن يؤدي الحد الأدنى من الواجب، لكنه يفوّت على روحه لذة القرب ومراتب السبق.

ثمة فرق بين من يعبد الله ليتجنب العقوبة، ومن يعبدّه شوقاً إلى رضاه. الأول يحسب مقدار ما يكفيهِ للنجاة، والثاني يسأل: ماذا بقي من أبواب المحبة لم أطرقه؟

﴿وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ﴾.

السابق لا ينتظر حتى يُدفع إلى الخير؛ بل يبادر إليه. إذا سمع نداءً إلى طاعة، لم يثقل إلى الأرض، وإذا رأى باباً للنفع، دخله قبل أن تراحمه الأعذار. يؤدي الفرائض، ويزيد من النوافل، ويترك الحرام، ويتورع عما يشغله عن ربه.

والسابق بالخيرات ليس سباقاً لاحتقار المتأخرين، بل سباق مع العمر الذي يتناقص، ومع النفس التي تسوّف، ومع فرصة قد لا تعود. السابق يعرف أن أبواب الخير لها مواسم، وأن القلب قد يُقبل اليوم ثم يفتر غداً؛ فإذا لاحت له نفحة لم يؤجلها.

قد يسبق إنسان بماله، وآخر بعلمه، وثالث بصبره، ورابع بقلب يحمل أعباء الآخرين. ليست ميادين السبق واحدة؛ فقد يفتح الله لعبد باباً لا يفتحه لغيره. العبرة أن يعرف المرء الباب الذي هياه الله له، ثم لا يقف عند عتبه.

لكن الآية تحرس السابق من العجب بقولها: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَعْجَبُوا﴾.

لم يسبق بقوته المستقلة، ولا بذكائه المجرد، بل بتوفيق الله. هو الذي أيقظ في قلبه الإرادة، وهياً له الفرصة، وأعانه على العمل، وقبله منه. ولو ترك السابق إلى نفسه لعجز أو انحرف.

كل طاعة تستوجب شكراً جديداً؛ لأنك لم تصنع توفيقك بيدك. ومن رأى نفسه سابقاً ونسي إذن الله، قد يكون قد سبق بجوارحه وتأخر بقلبه.

﴿ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾.

اختلف المفسرون في عود الإشارة، وهي تتسع لوراثه الكتاب والاصطفاء والسبق بالخيرات؛ وكلها من الفضل الكبير. أن يمنحك الله كتابه، ويجعلك من أمته، ويفتح لك طريق الطاعة؛ فذلك فضل لا تساويه كنوز الأرض.

يظن الإنسان أن الفضل الكبير مال واسع أو سلطان ظاهر، لكن القرآن يعيد تعريف الغنى: الفضل الكبير أن تجد في زمن التيه كتاباً لا يضل، وفي زمن الفتور توفيقاً إلى الخير، وفي زمن التسابق على الفاني قلباً يسابق إلى الباقي.

﴿جَنَّاتٌ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ
وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ (٣٣)

بعد رحلة التكاليف ومجاهدة النفس، يفتح القرآن باب الجنة: ﴿جَنَّاتٌ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا﴾.

والعدن هو الإقامة والاستقرار؛ فهي جنات إقامة لا يعقبها رحيل، ولا يهددها انتهاء. في الدنيا لا يكتمل جمال شيء؛ لأن خوف زواله يسكن داخله. نفرح باللقاء ونحن نعرف أن افتراقاً سيأتي، ونسكن البيت ونحن نعلم أن يوماً سيخرجنا منه، ونحب الإنسان ويدخل الموت طرفاً صامتاً في كل محبة.

أما جنات عدن فقد نُزعت منها شوكة الفناء. لا يقول أهلها: كم بقي؟ ولا يخافون أن يأتي صباح يحمل خبر الرحيل. النعمة هناك لا تمشي نحو نهايتها، بل تتجدد في بقاء لا يعترية ملل.

﴿يَدْخُلُونَهَا﴾.

الدخول نفسه لحظة لا يحيط بها الخيال. كم من خوف عبره المؤمن قبلها! قبر وبعث وحشر وحساب وصراط، ثم يُقال له: ادخل. عندها يعرف أن كل

سجدة أتعبت الجسد كانت راحة مؤجلة، وكل شهوة تركها لله كانت باباً، وكل دمة خفية صارت نوراً يقوده.

وجاء الفعل بصيغة الحاضر كأن المشهد يُرى الآن؛ ليقرب الغيب إلى القلب، ويحوّل الجنة من فكرة بعيدة إلى غاية تتحرك نحوها الحياة.

﴿يُحَلَّلُونَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا﴾.

في الدنيا قد يحرم المؤمن نفسه من حرام يلزم أمام عينيه، فيعوضه الله جمالاً لا إثم فيه ولا زوال. أساور من ذهب ولؤلؤ؛ زينة ظاهرة توافق ما غمر أرواحهم من كرامة باطنة.

وليس نعيم الجنة روحياً مجرداً ولا جسدياً مجرداً؛ بل هو نعيم الإنسان كاملاً، جسداً وروحاً. فالذي خلق فيه حاسة الجمال لا يهدرها، وإنما يطهرها من النقص ويمنحها ما لا عين رأت.

﴿وَلِبَاسُهَا فِيهَا حَرِيرٌ﴾.

اللباس في الدنيا يستر ضعف الجسد ويحميه من الحر والبرد، أما لباس الجنة فزينة ونعيم وكرامة؛ إذ لا عورة تقلقهم، ولا برد يؤذيهم، ولا ثوب يبلى.

وفي الدنيا قد يلبس الإنسان أجمل الثياب وقلبه عارٍ من السكينة، وقد يكسو جسده الحرير وروحه ترتجف من الخوف. أما في الجنة فقد توافق الظاهر والباطن: جمال يحيط بهم، وسلام يملأهم.

لكن لماذا يذكر القرآن هذه التفاصيل الحسية؟ لأن الإنسان ليس عقلاً يحيا بالمفاهيم وحدها؛ إنه روح تشاق، وعين تتخيل، وقلب يحتاج إلى صورة تقرب إليه الوعد. فيفتح له القرآن نافذة صغيرة على الجنة، ثم يترك ما وراءها لما لا يستطيع الوصف أن يبلغه.

﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ ۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾ (٣٤)

ما أول كلمة يقولها أهل الجنة بعدما دخلوها؟

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾.

بدأت السورة بالحمد: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، وها هي أصوات الناجين تلتقي عند الحمد. كأن رحلة الوجود الممتدة من فطر السماوات إلى دخول الجنة محاطة بالحمد في أولها وآخرها.

كان المؤمن يحمد الله في الدنيا وهو لا يرى القصة كاملة. يحمده وسط الألم، ويوقن بحكمته حين تغيب عنه الحكمة. فلما دخل الجنة وانكشفت له الخواتيم، عاد إلى الكلمة نفسها، لكن بمعرفة أوسع: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾.

سيكتشف هناك أن الرحمة كانت تحيط حتى بالأيام التي حسبها مهملة، وأن بعض الأبواب المغلقة كان يحرسه، وأن بعض الآلام طهرته ودفعته إلى الطريق. وحين يرى النتيجة، يفهم لماذا كان الحمد في الدنيا عبادة بالغيب، وصار في الجنة شهادةً بعد انكشاف الغطاء.

﴿الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ﴾.

لم يقولوا: الذي خفف حزننا، بل ﴿أَذْهَبَ﴾؛ أزاله كله. والحزن اسم جنس يشمل أحزان الدنيا والآخرة: حزنهم على تقصيرهم، وخوفهم من الحساب، وفقد الأحبة، وألم المرض، ووحشة الطريق، واضطراب المستقبل.

الإنسان في الدنيا كائن يرافقه الحزن حتى في أفراحه. يفرح وهو يخشى أن ينتهي الفرح، ويملك وهو يخاف أن يفقد، ويحب وهو يرتعد من الفراق. إن جزءاً من حزن الدنيا ليس فيما وقع، بل فيما قد يقع.

أما الجنة فهي الموضع الذي يُنتزع فيه احتمال الحزن من أصل الوجود. لا موت، فلا فراق؛ ولا مرض، فلا خوف؛ ولا ذنب، فلا ندم؛ ولا نقص، فلا حسرة؛ ولا مستقبل مجهول، فلا قلق.

تأمل قولهم: ﴿عَنَّا﴾. كأن الحزن كان حملاً موضوعاً عليهم، فلما دخلوا الجنة أخذه الله عن أكتافهم. وكم في الدنيا من إنسان يبتسم وفي أعماقه حزن لا يعرف له اسماً! أولئك جميعاً، إن صدقوا مع الله، لهم موعد مع دار لا يبقى فيها من الحزن أثر.

﴿إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾.

لم ينسبوا دخولهم إلى أعمالهم، مع أنهم تلووا الكتاب وأقاموا الصلاة وأنفقوا وسابقوا بالخيرات؛ بل تذكروا مغفرة ربهم وشكره. علموا أن أعمالهم لم تكن كاملة، وأن النجاة لم تقع باستحقاق مجرد.

هو غفور ستر نقصهم ومحا ذنوبهم، وشكور قبل حسناتهم القليلة وضاعفها. غفر ما لا يليق أن يبقى في الصحيفة، وشكر ما وفقهم هو إلى كتابته فيها.

وفي قولهم ﴿رَبَّنَا﴾ دفع القرب؛ لم يقولوا: إن الله لغفور شكور، بل استشعروا ربوبيته الخاصة التي ربتهم بالنعم، ونقلتهم من ضعف إلى قوة، ومن عثرة إلى توبة، ومن خوف إلى أمان.

هذا ربنا الذي لم يفضحنا بذنوبنا، ولم يردنا لنقص أعمالنا، ولم يعاملنا بما نحن أهل له، بل بما هو أهل له من المغفرة والكرم.

﴿الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ
وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾ (٣٥)

﴿الَّذِي أَحَلَّنَا﴾؛ أنزلنا وأقامنا إكرامًا. لم يقتحموا الجنة بقوتهم، بل أحلهم الله فيها. وكأنهم ضيوف كرم نزلوا على رب كريم؛ إلا أن ضيافته لا تنتهي، ومقامهم لا يتحول.

﴿دَارَ الْمُقَامَةِ﴾.

الدنيا دار مرور، وإن بالغ الإنسان في تثبيت أوتاده فيها. يبني بيته ويسميه مقرًا، لكنه في الحقيقة محطة؛ فإما أن يتركه، وإما أن يتركه البيت حين يتهدم. وكل مقام في الدنيا تعبره الأيام حتى يصير ذكرى.

أما الجنة فهي ﴿دَارَ الْمُقَامَةِ﴾؛ الدار التي يتطابق اسمها مع حقيقتها. لا حقائب فيها تجهز للرحيل، ولا أبواب تفتح على منفى، ولا ذكريات تتحول إلى ألم لأن أصحابها غابوا.

وفي التعبير اعتراف بحقيقة ظلت الروح تبحث عنها في الدنيا: الإنسان يريد بيتًا لا يُطرد منه، وحبًا لا يفقده، وأمانًا لا يعقبه خوف. لكنه يطلب ذلك أحيانًا

في مكان لم يُخلق ليعطيه الاستقرار الكامل. فالدنيا لا تخونه حين تنفي؛ إنها تفعل ما خُلقت له. إنما يخدع الإنسان نفسه حين يطلب من دار العبور صفات دار المقامة.

﴿مِنْ فَضْلِهِ﴾.

مرة أخرى يرد أهل الجنة الفضل إلى صاحبه. لم يقولوا: أحلناها باستحقاقنا، بل ﴿مِنْ فَضْلِهِ﴾. فعمل الإنسان، مهما عظم، لا يشتري الخلود؛ إنما هو سبب يتفضل الله بقبوله.

والفضل أوسع من الحساب. الحساب يقول: هذه حسنة وهذا جزاؤها؛ أما الفضل فيفتح أبواباً لم تخطر للعامل، ويمنحه فوق ما تمنى، ويجعل اللحظة المحدودة من الطاعة سبباً لنعيم لا تحده الأزمنة.

﴿لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ﴾.

النصب هو التعب والمشقة. لم يقل: لا يغلبنا، بل ﴿لَا يَمَسُّنَا﴾؛ حتى أدنى مساس بالتعب منفي. ففي الدنيا لا تكاد لذة تخلو من كلفة: الطعام يسبقه جوع ويلحقه

شبع، والسفر يفتح الآفاق لكنه يرهق الجسد، والنجاح يأتي بعد تعب وقد يجلب تعب الحفاظ عليه.

أما نعيم الجنة فلا يدفع الجسد ثمنه إنهاكًا، ولا تخشى النفس أن تستنزفه اللذة. طاقة متجددة، ونعيم لا يورث فتورًا، وحضور لا يرهقه الزمن.

﴿وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾.

اللغوب هو الإعياء والفتور الناتج عن التعب. نفى الله عنهم أصل المشقة وأثرها؛ فلا يصيبهم نصب أثناء العمل، ولا يلحقهم لغوب بعده. نعيم كامل لا تتسلل إليه الشقوق الصغيرة التي يتسرب منها الألم.

كم من إنسان في الدنيا أتعبته الحياة لا من عمل واحد، بل من تراكم الطريق! يحمل سنوات من المقاومة في جسده، وذكريات المعارك في روحه، حتى يصبح التعب جزءًا من تعريفه لنفسه. قد يستيقظ متعبًا قبل أن يبدأ يومه؛ لأن الأمس لم يغادره.

لهذا تبدو هذه الآية كيد رحيمة تمسح على قلوب المتعبين: هناك دار لا يمسكم فيها نصب. كل تعب حملتموه في طاعة الله له نهاية، وكل خطوة أثقلها الألم تقترب بكم من موضع تُنزع فيه مشقة الطريق، ولا يبقى إلا معنى الوصول.

إن الجنة ليست مكافأة على الحرمان فحسب، بل شفاء شامل من آثار الرحلة. يُذهب الله الحزن من القلب، والنصب من الجسد، واللغوب من الروح، ثم يمنح الإنسان إقامة لا موت بعدها.

وهكذا ترسم الآيات حركةً تبدأ بنزول الكتاب من السماء، ثم انتقاله ميراثًا إلى الأمة، ثم اختلاف الناس في حمله: ظالم لنفسه، ومقتصد، وسابق بالخيرات. لكنها لا تترك الوارثين عند عثراتهم، بل تفتح أمامهم جنات عدن؛ ليظل باب الرجاء أوسع من تقصيرهم، من غير أن يسقط عنهم واجب المسابقة.

وما بين ميراث الكتاب ودار المقامة يكمن سر الطريق كله: من عاش مع الكتاب حتى صار نورًا في رؤيته، وصلاةً في جوارحه، وخيرًا في أثره، قاده الكتاب إلى الدار التي لا يبور نعيمها.

هناك فقط يفهم الإنسان معنى أن يكون القرآن ميراثه؛
فهو لم يكن كتابًا يزيّن به حياته العابرة، بل كان
خريطة العودة إلى بيته الأبدي.

وحين يدخل ذلك البيت، لا يطالب بمجد لنفسه، ولا
يعدد أفعاله، بل ينحني قلبه أمام الفضل ويقول:

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ﴾.

الفصل السابع

الصرخة التي جاءت بعد انقضاء العمر

الآيات: ٣٦-٣٩

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ﴾
(٣٦)

كانت الآيات السابقة نافذةً على الجنة: ذهبٌ ولؤلؤٌ وحرير، وحمد يملأ الألسنة، وحزن رحل بلا عودة، ودار إقامة لا نصب فيها ولا لغوب. ثم ينتقل السياق فجأةً إلى الجهة الأخرى من المصير؛ لا ليقطع الرجاء، بل ليمنع الرجاء من أن يتحول إلى غفلة.

فالقرآن لا يعرض الجنة وحدها حتى يأمن المسيء، ولا يعرض النار وحدها حتى يقنط التائب. إنه يبني القلب بين جناحي الخوف والرجاء؛ يرى الجنة فيشتاق، ويرى النار فيحذر، ثم يمضي إلى الله بمحبة لا تتهاون، وخشية لا تياس.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ﴾.

كان لأهل الجنة ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ﴾، ولهؤلاء ﴿نَارُ جَهَنَّمَ﴾. طريقان بدأ في الدنيا خيارات قد يراها الإنسان صغيرة، لكنهما انتهيا إلى مصيرين لا يستويان.

إن الآخرة تكشف الحجم الحقيقي لأعمال الدنيا. كلمة الكفر التي خرجت خفيفة من اللسان، وموقف الاستكبار الذي مر في لحظة، والإعراض الذي ظنه صاحبه تحرراً من التكاليف؛ تتجلى هناك في صورتها النهائية. فالأعمال بذور، والآخرة موسم ظهور الثمار.

﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا﴾.

في الدنيا قد يصبح الموت، على شدته، نهايةً للألم. يعرف المعذب أن جسده، إذا بلغ غاية احتماله، سينطفئ. أما في النار فلا يُقضى على أهلها فيموتوا؛ يستمر الإحساس ولا تأتي النهاية التي ينتظرونها.

والموت الذي كان الإنسان يخافه في الدنيا يصير هناك أمنية؛ لكن زمن الأمنيات المنتجة قد انتهى. كان يستطيع في الدنيا أن يميت كفره بالتوبة، وأن يقطع

طريقه إلى النار بالرجوع، فلما أصر حتى جاء الموت، صار يطلب موتاً آخر فلا يجده.

﴿وَلَا يُخَفِّفْ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا﴾.

نفى عنهم الموت الذي ينهي العذاب، ونفى التخفيف الذي يهوّنه. فلا انقطاع ولا فتور. وهذه الصورة تخلع من القلب وهمّاً خطيراً: أن العاقبة يمكن احتمالها، أو أن النار مبالغه وعظية لا حقيقة لها.

إن الذي أخبر عن النار هو نفسه الذي أخبر عن الجنة، والذي صدقناه في سعة رحمته يجب أن نصدق في شدة عقابه. انتقاء ما يوافق مشاعرنا من صفات الله ليس إيماناً به، بل صناعة صورة وفق أهوائنا.

﴿كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ﴾.

الكفور هو الشديد الكفر والجحود؛ الذي توالى عليه النعم فبالغ في سترها، وجاءته الآيات فأصر على ردها. لم يكن العذاب نتيجة عثرة عابرة، ولا ذنب أعقبه ندم، بل جزاء قلب اتخذ الجحود طريقاً حتى انتهى به الطريق.

وتكرار صيغة المبالغة يذكرنا بأن الله لا يسوي بين من زلّ ثم تاب وبين من أقام على الكفر مستكبراً. رحمته تسبق من عاد، وعدله يدرك من أصر.

﴿وَهُمْ يَصْطَرِّخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ ۖ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ (٣٧)

﴿وَهُمْ يَصْطَرِّخُونَ فِيهَا﴾.

لم يقل: يصرخون، بل ﴿يَصْطَرِّخُونَ﴾؛ وصيغة الافتعال تحمل معنى شدة الصراخ وتداخله. أصوات مرتفعة متزاحمة، ينادي بعضهم مع بعض، لا من ألم النار وحده، بل من ألم الحقيقة حين تظهر بعد زمن الإنكار.

إنها صرخة الجسد المحترق، وصرخة الروح التي عرفت متأخرة أنها أضاعت الفرصة الوحيدة.

وفي الدنيا كانت أصوات الأنبياء تناديهم، لكنهم أغلقوا آذانهم. واليوم هم الذين ينادون، ولا يملكون حق العودة. كانوا يستطيعون أن يسمعوا فلم يسمعوا، فلما صاروا يصرخون لم تعد الصرخة تغير المصير.

﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا﴾.

يعترفون الآن بالرب الذي جحدوه أو أعرضوا عن أمره. سقطت الآلهة، وغابت الأنداد، وتبخرت الفلسفات التي أنكرت الآخرة، ولم يبق على ألسنتهم إلا: ﴿رَبَّنَا﴾.

لكن الاعتراف حين تزول حرية الاختيار لا يكون إيماناً منجياً. ليس الإيمان أن تستسلم للحقيقة بعدما تصبح الحس وحده، بل أن تصدق خبر الله في الغيب وتختار طاعته وأمامك إمكان العصيان.

﴿أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾.

لم يعودوا يطلبون أموالهم ولا بيوتهم ولا مناصبهم. يطلبون شيئاً واحداً: فرصة عمل صالح. كل ما كان يزدهم في أعينهم في الدنيا تقلص الآن، ولم يبق من قيمة إلا للعمل الذي فرطوا فيه.

وهم لا يقولون: نعمل صالحاً فحسب، بل ﴿غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾. لقد عرفوا أن أعمالهم السابقة كانت فاسدة، وأن المقاييس التي زينتها لهم كانت كاذبة. انقشعت زخارف الأسماء، وظهر القبح الذي أخفاه التزيين.

كم قال لهم الناصحون: غَيِّرُوا أَعْمَالَكُمْ، فقالوا: نحن مصلحون. وكم حذرتهم الآيات من الباطل، فقالوا: بل هذا هو التقدم والحرية والعقل! والآن يطلبون عملاً غيره، بعدما لم تعد المعرفة نافعة؛ لأن زمن الامتحان قد انقضى.

ويأتيهم الجواب في صورة سؤال يحمل إقامة الحجة:

﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرْ﴾.

ألم نعطكم من العمر ما يكفي للتذكر؟ لم تأتكم النهاية في اللحظة نفسها التي بدأت فيها الحياة، بل مُدَّ لكم في الزمن. رأيتُم الأيام تتعاقب، والناس يرحلون، والشباب يذبل، والشيب يظهر، والأحبة يُحملون إلى القبور. كانت كل هذه نذراً صامتة.

والعمر ليس عدد السنوات وحده، بل عدد الفرص التي مرت. كل صباح كان فرصة، وكل مرض كان تذكيراً، وكل جنازة كانت رسالة، وكل آية سمعتها كانت باباً.

لماذا يطلبون عمراً جديداً وقد أضاعوا العمر الأول؟ المشكلة لم تكن في قلة الوقت، بل في طريقة النظر إليه. من عاش مؤجلاً توبته سيحمل معه التأجيل ولو مدّ له، ما لم يتغير القلب.

وفي قوله: ﴿مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ﴾ عدل بالغ؛ فقد منحوا مقداراً من الزمن يستطيع فيه من أراد التذكر أن يتذكر. لم يكلفوا بما يتجاوز طاقتهم، ولم يُحرّموا لحظة الاختيار.

﴿وَجَاءَكُمْ النَّذِيرُ﴾.

جاءهم الرسول والوحي، وجاءهم ما ينذرهم من الشيب والموت والحوادث وتقلب الدنيا. لم يكن الطريق خالياً من العلامات؛ لكنهم اعتادوا العلامة حتى لم يعودوا يرونها، أو رأوها ثم انشغلوا عنها.

أبلغ النذر موت الآخرين؛ لأنه يرينا النهاية من غير أن يأخذ منا فرصة العمل. حين تمشي في جنازة، فإن الميت لا يحتاج إلى الموعظة، بل أنت. هو قد وصل، وأنت ما زلت في الطريق.

﴿فَذُوقُوا﴾.

الذوق إدراك مباشر. كنتم تسمعون عن العذاب خبرًا، فصار الآن واقعًا تذوقونه. وكان المطلوب أن تصدقوا الخبر قبل أن يتحول إلى ذوق؛ فهذه هي حقيقة الإيمان بالغيب.

﴿فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ﴾.

لا يجدون من يخرجهم، ولا من يدفع عنهم الحكم، ولا من يمنحهم عمرًا آخر. انتهت علاقات القوة التي اتكلوا عليها في الدنيا، وتبين أن كل نصير من دون الله كان محتاجًا إلى نصير.

والظلم هنا بلغ غايته؛ ظلموا أنفسهم حين حرموها النجاة، وظلموا الحق حين جحدوه، وظلموا غيرهم بحسب ما اقترفوا. فكان الجزاء أن تُركوا بلا نصير بعدما أعرضوا عن النصير الحق.

يا لها من آية تهز وهم المستقبل الطويل! نحن نقرأ طلبهم: ﴿أَخْرَجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا﴾، بينما نحن ما زلنا خارج النار، وما زال العمل الصالح ممكنًا. ما صار عندهم أمنية هو في أيدينا الآن فرصة.

كل سجدة تستطيع أداءها اليوم هي بعض ما يصرخون من أجله. وكل توبة يمكنك إعلانها، وكل مظلمة تستطيع ردها، وكل قلب يمكنك جبره؛ هو جزء من العمر الذي سيسأل المتأخرون أن يُعاد إليهم فلا يعود.

﴿إِنَّ اللَّهَ عَالِمُ غَيْبِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ (٣٨)

قد يقول قائل في نفسه: لو أعدنا لتغيرنا حقًا. وقد يزعم آخر أن كفره لم يكن عنادًا، وأن قلبه كان يريد الخير. فتأتي الآية لتقرر أن الحكم صدر عن علم لا يخالطه نقص:

﴿إِنَّ اللَّهَ عَالِمُ غَيْبِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾.

يعلم ما غاب في أقطار السماوات والأرض؛ ما مضى وما يأتي، وما وقع وما كان يمكن أن يقع لو تغيرت أسبابه. يعلم ماذا كانوا سيفعلون لو عادوا، ويعلم صدق الدعاء من كذبه، والندم الذي يصنعه الخوف من الندم الذي يصنعه الحب والتوبة.

ولا تغيب عنه ذرة في ظلمة، ولا حركة في فضاء،
ولا حياة في عمق بحر. وإذا كان علمه يحيط بغيب
السموات والأرض، فكيف يخفى عليه قلب واحد؟

﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾.

ذات الصدور هي أسرارها وضمائرها وما استقر
فيها. يعلم الفكرة قبل أن تتحول إلى كلمة، والنية قبل
أن تتحول إلى حركة، والدافع الذي أخفاه الإنسان حتى
عن نفسه.

قد ينجح المرء في صناعة صورة صالحة أمام الناس،
ويقنعهم بإخلاصه، لكنه يقف أمام علم لا تخدعه
الصور. والله يعلم الفارق الدقيق بين من عمل له ومن
عمل لنظرات الآخرين، وبين من دافع عن الحق ومن
دافع عن ذاته تحت راية الحق.

وهذا العلم مخيف لمن يعيش بوجهين، لكنه مطمئن
للمظلوم والمخلص. قد يسيء الناس فهمك، وقد
ينسبون إلى قلبك ما ليس فيه، لكن الله عليم بذات
الصدور. لا تحتاج أن تمزق روحك في محاولة شرح

نفسك لكل أحد؛ يكفيك أن تكون حقيقتك معلومة عند من يزن بها المصير.

ويعلم الله أيضًا الخير الذي لم تستطع التعبير عنه، والدمعة التي حبستها، والنية الصالحة التي عجزت عنها، والمجاهدة التي لم يرها أحد. فليست خفايا الصدور كلها موضع خوف؛ بعضها كنوز لا يعرفها إلا الله، وسيخرجها يومًا في صورة فضل.

﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ ۖ فَمَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ ۖ وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا ۖ وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا﴾ (٣٩)

﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ﴾.

الإنسان ليس المالك الأصلي للأرض، بل مستخلف فيها. جاء بعد أجيال مضت، وسيمضي لتأتي أجيال بعده. البيوت التي يسكنها كانت أرضًا قبل وجوده، وستؤول بعده إلى غيره. وما يسميه ملكي ليس إلا حيازة مؤقتة بين غايبين.

والخلائف جمع خليفة؛ يخلف بعض الناس بعضًا في
عمارة الأرض والقيام بما كلفهم الله به. وفي هذا
الاستخلاف تكريم ومسؤولية معًا. كرم الله الإنسان
بالعقل والإرادة والقدرة على البناء، ثم سأله كيف
استعمل ما وُضع في يده.

ليس الاستخلاف تصريحًا للإنسان أن يفسد الأرض؛
بل عقد أمانة. فالمال أمانة، والعلم أمانة، والسلطة
أمانة، والجسد أمانة، والكلمة أمانة. أنت لا تتصرف
في ملك مستقل، بل في شيء ستسلم عنه حسابًا إلى
مالكه.

وقد يتوهم جيل أنه صاحب الأرض النهائي،
فيستنزف خيراتها ويترك لمن بعده الخراب. لكنه
حين يفهم الاستخلاف يرى حقوق الغائبين أيضًا؛
فالأرض ليست هدية له وحده، بل أمانة عابرة بين
الأجيال.

﴿فَمَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ﴾.

الكفر لا يصعد إلى الله فينقص من ملكه، بل يعود على صاحبه. حرف ﴿عَلَى﴾ يشعر بالثقل؛ فكفره حمل موضوع عليه، لا حرية خفيفة بلا تبعات.

قد يظن الكافر أنه تحرر من أمر الله، لكنه لم يتحرر من حاجته إلى المعنى، ولا من عبوديته لهواه، ولا من المصير الذي ينتظره. خلع عن نفسه عبودية الرحمن، فوزع عبوديته بين شهوات ومخاوف وأشياء لا ترحمه.

كل خطيئة تحمل أثرها على صاحبها قبل الآخرة. الكبر يعزله، والحسد يحرقه، والكذب يطارده، والشهوة المنفلتة تسلبه حريته، وإن ظهر للناس مستمتعاً. ليس العقاب كله مؤجلاً؛ ففي بعض الذنوب قطعة من نارها كامنة فيها.

﴿وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا﴾.

المقت هو أشد البغض. كلما ازدادوا كفرًا ازدادوا بعدًا عن رضا الله واستحقاقاً لمقتته؛ لأنهم لا يقفون في موضع جامد، بل يراكمون الإعراض بعد الإعراض، ويضيفون إلى الحجة حجة ثم يصرون.

وقوله: ﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ يهدم موازينهم الظاهرة. قد يزيدهم كفرهم منزلةً عند قومهم، أو يمنحهم شهرة وسلطاناً، لكن ما قيمتهم عند ربهم؟ تلك هي القيمة التي تبقى بعد أن تسقط المنابر والجماهير.

الإنسان كثيراً ما يقيس نفسه بموقعه عند الناس، مع أن الناس لا يرون إلا ظاهراً قصيراً. قد يرفعونه لما يخفضه عند الله، وقد يلومونه على ما يرفع مقامه عنده. فالعقل لا يجعل السوق البشري ميزان روحه.

﴿وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا﴾.

المقت وصف لموقعهم عند الله، والخسار وصف لما يعود عليهم. يخسرون صفاء الفطرة، ونور القلب، وطمأنينة العبودية، ثم يخسرون الآخرة؛ والخسارة النهائية أن يكتشف الإنسان أنه أنفق رأس مال عمره في شراء هلاكه.

قد يربح الكافر مالًا بكفره أو نفوذًا أو لذة، لكن الآية تنظر إلى الحساب الكامل. ليست الصفقة رابحةً لأنك قبضت ثمنًا عاجلاً؛ عليك أن تنتظر ماذا دفعت مقابلته. ومن دفع نفسه وآخرته فقد خسر، ولو ملأت المكاسب يديه.

وهكذا يجتمع في الآية لفظا ﴿مَقْتًا﴾ و﴿خَسَارًا﴾: خسارة في الصلة بالله، وخسارة في المصير. لا يبقى للكفر ربح حقيقي من أي جهة.

ويكتمل بهذا الفصل مشهد المقابلة بين دارين: دار المقامة التي ذهب عنها الحزن، ونار يصطرخ أهلها طالبين الرجوع. في الأولى أناس قالوا: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾، وفي الثانية أناس قالوا: ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا﴾. الفريقان عرفا ربَّهما في النهاية، لكن الأول عرفه في زمن الإيمان والعمل، والآخر لم يعترف إلا بعد انتهاء الاختيار.

إن الفارق بين الحمد والصرخة هو ما نصنعه الآن بأعمارنا.

فلا تنظر إلى يومك كأنه قطعة صغيرة لا وزن لها؛
إنه جزء من الإجابة التي ستقدمها حين تسأل عن
عمرِكَ. ولا تنظر إلى العمل الصالح كتكليف ثَقِيل؛
فإنه الأمانة الكبرى لأناس عرفوا قيمته بعد أن صار
مستحيلاً.

ما دام في الصدر نفس، فالباب لم يُغلق. وما دامت
التوبة ممكنة، فأنت لا تزال في دار العمل. وما دام
المصحف بين يديك، فقد جاءك النذير.

فلا تجعل آية اليوم تتحول إلى حجة عليك غداً، ولا
تنتظر حتى يصبح ما تملكه الآن صرخةً تقولها في
النار:

﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾.

الفصل الثامن

السَّمَاءُ الَّتِي يُمْسِكُهَا اللَّهُ وَالْإِنْسَانُ الَّذِي يَحْمِلُهُ
الْحِجْلُ

الآيَات: ٤٠-٤٥

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي
مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ أَمْ
آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا فَهُمْ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْهُ بَلْ إِنْ يَعِدُ الظَّالِمُونَ
بَعْضُهُمْ بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا﴾ (٤٠)

تقترب السورة من ختامها، فتضع الشرك أمام
محكمة لا تعتمد على الانفعال، بل على ثلاثة أسئلة
قاطعة: ماذا خلق الشركاء من الأرض؟ وهل لهم
نصيب في خلق السماوات وتديرها؟ وهل نزل لهم
من الله كتاب يثبت استحقاقهم للعبادة؟

إنها محكمة الوجود والعقل والوحي معًا.

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾.

أضاف الشركاء إليهم: ﴿شُرَكَاءُكُمْ﴾، لا لأنهم شركاء الله في الحقيقة، تعالى الله عن ذلك، بل لأن الناس هم الذين اخترعوا لهم هذه المنزلة في أوهامهم. إنهم شركاؤكم الذين صنعهم تصوركهم، أما في ميزان الحقيقة فلا شريك لله.

والتعبير يحمل توبيخًا خفيًا: أنتم الذين منحتموهم مقامًا لم يمنحهم الله إياه، وخلعتم عليهم قوة لا يملكونها، ثم سجدتم للصورة التي رسمتها مخيلتكم.

وكثير من العبوديات تبدأ بهذه الطريقة: يضم الإنسان شيئًا في داخله حتى يصبح أكبر من حجمه، ثم يخضع لما صنعه تضخمه. قد يكون مالا أو سلطانًا أو شخصًا أو جماعة؛ يبدأ سبيًا محدودًا، ثم يمنحه القلب صفات لا يملكها، حتى يتعامل معه كأن بيده المصير.

﴿أُرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ﴾.

ليس المطلوب منهم أن يخلقوا أرضًا كاملة؛ بل أروني أي شيء خلقوه منها خلقًا مستقلًا. جبلًا، أو شجرة، أو نملة، أو ذرة تراب. وليس المقصود إعادة تشكيل

مادة موجودة؛ فالإنسان يصنع من الخشب بابًا ومن الحديد آلة، لكنه لا يخلق مادة الخشب ولا خصائص الحديد ولا العقل الذي عرف به الصناعة.

الخلق ابتداءً شيء، وتركيب الموجودات شيء آخر. وكل ما يسميه الإنسان صناعةً يتحرك داخل خزانة سبق أن أوجدها الله: مادة وطاقة وقانون وعقل وزمن. إنه لا يقف خارج الكون لينشئه، بل يعمل من داخله بما أُعطي.

فإذا كان المدعوون من دون الله عاجزين عن خلق أدنى شيء، فمن أين استحقوا الدعاء والعبادة؟

﴿أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ﴾.

إن لم يخلقوا شيئاً من الأرض، فهل شاركوا في بناء السماوات؟ هل وضعوا نجماً في مداره، أو أمسكوا مجرةً من الانهيار، أو حددوا للشمس مسارها وأجلها؟

السموات أمام الإنسان إعلان هائل عن وحدانية التدبير. هذا النظام الواسع لا تظهر فيه حدود بين ممالك لآلهة متنازعة، ولا آثار صراع بين إرادات مستقلة. القانون واحد، والنسق متماسك، والتدبير يشهد لوحدة المدبر.

إن تعدد الخالقين لو وقع لأظهر في الكون التمانع والفساد، لكن الوجود يسير في شبكة من التوافق؛ من حركة الذرة إلى حركة المجرة. وعلى الرغم من اتساع المسافات، لا يبدو الكون حشدًا من العوالم المقطوعة، بل كتابًا كتبته مشيئة واحدة.

﴿أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِنْهُ﴾.

إذا عجزوا عن إثبات شركائهم من جهة الخلق، فهل يملكون وحياً من الله يمنحهم هذه المكانة؟ هل نزل كتاب يقول للناس: ادعوا هؤلاء من دوني، أو اجعلوا لهم نصيباً من العبادة؟

ليس هناك كتاب، ولا بينة، ولا سلطان. فالشرك ساقط بشهادة الوجود، وساقط بحكم العقل، وساقط بميزان الوحي. لم يبق له إلا التقليد والخوف والرغبة وخداع بعض الناس لبعض.

﴿بَلْ إِنْ يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا﴾.

هذا هو رأس مال الباطل حين تفلس حجته: الوعود. يعد السادة أتباعهم بالنصرة والنجاة، ويعد الأتباع سادتهم بالطاعة والتأييد، ويزين بعضهم لبعض أن ما هم عليه حق، أو أن الآلهة ستشفع لهم، أو أن العقوبة لن تكون كما أخبر الله.

لكنها وعود من غرور؛ لامعة في ظاهرها، خاوية في حقيقتها. والوعد الغرور لا يمنحك ما تعد به كلماته، بل يستخرج منك عمرك وولاءك، ثم يتركك عند لحظة الحاجة وحيداً.

وكم من مشروع باطل عاش طويلاً على توزيع الوعود! يَعدُّ الناس بالمجد ليأخذ حريتهم، وبالأمن ليأخذ حقوقهم، وبالخلاص ليجعلهم أدوات. وحين يأتي الحصاد يكتشفون أن الوعود لم تكن جسراً إلى المستقبل، بل ستاراً أخفى الهاوية.

﴿إِنَّ اللَّهَ يُمَسِّكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أُمْسِكُهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ (٤١)

بعد أن سأل المشركين: ما نصيب شركائكم في السماوات؟ تجيء الإجابة الضمنية: لا نصيب لهم؛ فالله وحده لا يخلق السماوات والأرض فحسب، بل يمسكهما في كل لحظة من الزوال.

﴿إِنَّ اللَّهَ يُمَسِّكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا﴾.

نحن نعيش تحت سماء مستقرة، ونمشي على أرض تبدو ثابتة، حتى توهمنا الألفة أن الاستقرار صفة ذاتية فيهما. لكن الآية تكشف أن بقاء النظام ليس أقل افتقاراً إلى الله من بدايته. فالخلق يحتاج إليه كي يوجد، ويحتاج إليه كي يبقى.

إِنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيْسَتَا آلَةً خَلَقَهَا اللَّهُ ثُمَّ تَرَكَهَا
تَعْمَلُ بَعِيدًا عَنْ تَدْبِيرِهِ، بَلْ كُلُّ لَحْظَةٍ مِنْ انْتِظَامِهَا
وَاقِعَةٌ بِإِمْسَاكِهِ. لَا يَسْتَقِلُّ الْكَوْنُ عَنْ رَبِّهِ طَرْفَةَ عَيْنٍ،
وَلَا تَتَحَوَّلُ الْقَوَانِينُ إِلَى قُوَى تَتَنَازَعُ مَشِيئَتَهُ؛ إِنَّهَا
بَعْضُ أَمْرِهِ الْجَارِي فِي خَلْقِهِ.

﴿أَنْ تَزُولَا﴾؛ أَيِ يُمْسِكُهُمَا كِرَاهَةً أَنْ تَزُولَا، وَيَحْفَظُهُمَا
مِنَ الْاضْطِرَابِ وَالْإِنْهِيَارِ. أَجْرَامٌ لَا يَحْصِيهَا الْبَشَرُ
تَتَحَرَّكُ فِي فِضَاءٍ وَاسِعٍ، بِسُرْعَاتٍ هَائِلَةٍ، وَمَعَ ذَلِكَ
تَبْقَى فِي مَدَارَاتٍ قَدَرَهَا اللَّهُ.

إِنَّ الْإِنْسَانَ قَدْ يَنَامُ فِي بَيْتٍ صَغِيرٍ لَا يَعْرِفُ مَا يَجْرِي
فِي قَلْبِهِ، بَيْنَمَا خَالَقُهُ يُمْسِكُ نِظَامَ السَّمَاوَاتِ كُلِّهِ،
وَيَحْفَظُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا. كَيْفَ يَقْلُقُ عَلَى أَمْرِ سَلَمَةٍ
إِلَى مَنْ لَا يَشْغَلُهُ تَدْبِيرُ كَوْنٍ عَنْ سَمَاعِ دَعَاءِ عَبْدٍ؟

لَكِنَّ الْآيَةَ لَا تَرِيدُ أَنْ تَمْنَحَنَا مَعْرِفَةَ كَوْنِيَّةٍ فَحَسَبٍ؛ إِنَّهَا
تَبْنِي فِي الْقَلْبِ مَعْنَى الْإِعْتِمَادِ. الَّذِي يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ
قَادِرٌ أَنْ يُمْسِكَ قَلْبَكَ حِينَ تَوْشِكُ الْأَحْزَانُ أَنْ تَزْلُزْلَهُ،
وَأَنْ يُمْسِكَ إِيمَانَكَ حِينَ تَمُرُ بِهِ رِيَا حُ الْفِتَنِ، وَأَنْ يُمْسِكَ
حَيَاتَكَ حَتَّى تَبْلُغَ أَجْلَهَا.

كم مرة ظننت أنك ستتهار ثم وجدت قوة لا تعرف مصدرها تسندك؟ لعلها كانت نفحةً من معنى الإمساك؛ لطفًا لا تراه، لكنه يمنع أجزائك من التبعر.

﴿وَلَيْنُ زَالَتَا إِنْ أَمَسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ﴾.

إن زالت السماوات والأرض بأمر الله عند قيام الساعة، فلا أحد يستطيع أن يمسكهما من بعده. فلا قوة احتياطية تنتظر إذا انتهى تدبيره، ولا إله آخر يستطيع إعادة النظام إذا قضى الله بانتهائه.

كل قوة نعرفها تعمل داخل السماوات والأرض، فكيف تحفظ الإطار الذي يحتويها إذا انهار؟ وكل مخلوق محمول، فكيف يحمل الوجود كله؟

ثم تأتي خاتمة تبدو لأول وهلة بعيدة عن الإمساك الكوني: ﴿إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾.

كان المتوقع في ظاهر السياق أن يقال: إنه كان قويًا قديرًا؛ لكن الآية ذكرت الحلم والمغفرة. وكأنها تنقل النظر من السماوات التي يمسكها الله إلى البشر الذين يعيشون تحتها ويشركون به، ومع ذلك لا يعاجلهم بالعقوبة.

إنه يمسك السماء فوق من جده، ويبسط الأرض تحت من عصاه، ويرسل الأرزاق إلى من نسب نعمته لغيره. لو كانت معاصي الناس تُسقط عليهم السماء في لحظتها، لما بقي على الأرض أحد؛ لكن حلم الله يحمل العالم الأخلاقي كما تحمل قدرته العالم المادي.

حلمه ليس عجزاً عن العقوبة، بل إمهال من القادر. ومغفرته ليست إلغاءً للعدل، بل فتح باب قبل مجيء الحكم. يعطي المسيء زمناً يعود فيه، ويجعل بين الذنب والعقوبة مساحة اسمها التوبة.

يا لرحمة الله! الإنسان يعصيه تحت سمائه، وعلى أرضه، وبجوارح خلقها، وقوة أمدها، وهو سبحانه لا يقطع عنه الهواء في اللحظة نفسها، بل يناديه أن يرجع.

﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ ۚ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾ (٤٢)

قبل بعثة النبي ﷺ كان المشركون ينظرون إلى انحراف الأمم السابقة، ويقسمون أنهم لو جاءهم رسول لكانوا أشد استجابةً وأقوم طريقاً.

﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾.

بالغوا في القسم، واستنفدوا طاقته في التأكيد. لم تكن كلمات عابرة؛ لقد أظهرُوا ثقةً كاملةً بأنفسهم. تخيلوا الإيمان موقفاً سهلاً ما دام لم يطلب منهم بعد، ورأوا أنفسهم أهدى ممن سبقهم لأن الامتحان لم ينزل بساحتهم.

والإنسان كريم الوعود مع المواقف التي لم تقع. يقول: لو امتلكت المال لأنفقت، ولو تعرضت للفتنة لثبت، ولو ظهر لي الحق لاتبعته. ثم تأتي اللحظة فتفضح المسافة بين الصورة التي رسمها لنفسه وحقيقة نفسه.

كم يبدو الصدق سهلاً قبل أن يكون له ثمن! وكم تبدو الشجاعة جميلة قبل أن يدخل الخوف! وكم يسهل مدح التضحية ما دامت لا تطلب منك شيئاً تحبه!

﴿لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ﴾.

لم يقولوا: سنكون مهتدين فحسب، بل ﴿أَهْدَى﴾؛ فدخلت المقارنة والاعتداد بالنفس حتى في وعدهم بالطاعة. كانوا يمدحون فضيلة لم يمارسوها، ويقيمون لأنفسهم مقامًا لم يمتحنوا فيه.

وهذه آفة تتكرر في كل زمن: يقرأ الإنسان أخطاء السابقين فيستسهل إدانتها، ويتوهم أنه لو عاش زمنهم لكان بطلاً مختلفاً. يلوم من خذلوا الحق قديماً، بينما يخله في صورته الحاضرة؛ لأن الحق القديم لا يكلفه شيئاً، أما الحق الحاضر فيطالبه بموقف.

﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ﴾.

هذه هي لحظة الامتحان. لم يعد النذير أمنيةً مفترضة، بل صار رجالاً يعرفون صدقه ونسبه، يتلو عليهم كتاباً معجزاً، ويدعوهم إلى إله واحد.

﴿مَا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾.

كان المفترض، بحسب أيمانهم، أن يزيدهم هدى؛ لكنه زادهم نفوراً. لا لأن النذير دفعهم بعيداً، بل لأن اقتراب النور كشف ما في نفوسهم من رفض.

فالنور يؤدي العين التي اعتادت الظلام، والحق يزعج النفس التي بنت مصالحها على الباطل. وكلما اقترب الدليل، ازداد المعاند هرباً؛ لأنه لم يعد يملك مساحة واسعة للاختباء.

والنفور حركة ابتعاد فيها فزع؛ كأنهم لم يروا في النذير باب نجاة، بل خطراً على البنية التي ألفوها. فالرسالة ستسوي بين السيد والعبد، وتبطل تجارة الأصنام، وتعيد المال والسلطة إلى ميزان الأمانة. لذلك قاوموها لا لأنها غامضة، بل لأنها واضحة أكثر مما يحتمل باطلهم.

إن هذه الآية تعلمنا ألا نغتر بصورتنا المتخيلة. لا تقل: لو رأيت آية لآمنت؛ فالآيات حولك. ولا تقل: لو جاءني من ينصحني لقبلت؛ فقد يكون الناصح أمامك لكن كبرك يرفض صوته. المعيار ليس ما تعد به في غياب الامتحان، بل ما تفعله حين يأتي.

﴿اسْتَكْبَرًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ ۚ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ
السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ ۚ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتِ الْأَوَّلِينَ ۚ فَلَنْ
تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا﴾
(٤٣)

لماذا نفروا بعد مجيء النذير؟ تجيب الآية: ﴿اِسْتَكْبَارًا فِي الْأَرْضِ﴾.

لم تكن المشكلة نقص الدليل، بل تضخم الذات. رأوا أن اتباع الرسول ﷺ يساوي نزولهم عن المقام الذي صنعوه لأنفسهم، وأن السجود لله سيحرمهم من استعباد الناس.

والاستكبار هو طلب الكبر واتخاذ هيئة ليست للإنسان. فالكبرياء لله؛ أما المخلوق فبدايته نطفة، ونهايته جيفة، وبين البداية والنهاية يحمل في جوفه ضعفه. فإذا استكبر، لم يزد حجمه الحقيقي، بل ابتعد عن إدراكه.

وأضاف الاستكبار إلى الأرض: ﴿فِي الْأَرْضِ﴾؛ وكأن في اللفظ تهكمًا بحاله. يستكبر أين؟ في أرض ليست له، وتحت سماء يمسكها غيره، وبجسد لا يضمن نبضته القادمة! إنه استكبار مستعار في مكان مستعار، خلال زمن مستعار.

﴿وَمَكَرَ السَّيِّئُ﴾.

لم يكتفوا بالنفور في قلوبهم، بل دبّروا المكائد لإطفاء النور؛ شوهوا الرسالة، وآذوا الرسول ﷺ، وصدوا الناس، وتحالفوا على الباطل. فالاستكبار إذا استقر في النفس تحوّل إلى مشروع لحماية نفسه، والمكر هو جهازه الخفي.

﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾.

يحيق أي ينزل ويحيط. المكر دائرة يرسمها صاحبه حول غيره، ثم يكتشف أنه كان واقفاً في مركزها. قد يصيب الممكور به أذى عابراً، لكن العاقبة الكاملة تعود على الماكر.

وليس ذلك مجرد جزاء يأتيه من الخارج؛ فالمكر نفسه يبدأ في إفساد صاحبه من الداخل. يجعله شكاكاً، خائفاً، عاجزاً عن الثقة؛ لأنه يقيس الناس على ما يفعله بهم. يعيش يراقب انكشاف خطته، ويحمل عبء تمثيل الوجوه، حتى يصبح أول ضحايا مكره.

ومن يحفر للحق حفرةً لا يلغي الحق؛ إنما يحفر مكان سقوطه في التاريخ والآخرة. فالنور لا يُطفأ بالنفخ، لكنه يكشف وجه النافخ.

﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ﴾.

ما الذي ينتظرونه بعد أن ساروا طريق المكذبين؟ هل ينتظرون إلا ما جرى على من سبقهم من أهل الاستكبار والمكر؟ لقد تشابهت المقدمات، فكيف يطمعون في نتائج مختلفة؟

وسنة الله هي طريقته المطردة في معاملة خلقه بحسب حكمته وعدله: ينصر الحق في عاقبته، ويمهل الظالم، ثم يأخذه إذا استوفى أسباب الأخذ، ويجعل المكر السيئ يحيق بأهله.

﴿قُلْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾.

لا يتحول العدل ظلماً إرضاءً لقوي، ولا يصبح الباطل حقاً لأن إمبراطورية تبنته. قد يطول الطريق وتتغير التفاصيل، لكن القانون الأخلاقي العميق لا يتبدل.

﴿وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا﴾.

لا تُحوّل السنة عن مستحقها إلى غيره، ولا يُصرف أثرها بعيداً عن أقالم أسبابها. لن يعيش قوم أسباب السقوط ثم تُحوّل النتيجة إلى أمة أخرى بلا سبب.

والتكرار بين التبديل والتحويل يقطع أوهام الاستثناء. كل جيل متكبر يظن أنه مختلف عن الهالكين، وأن قوته وتقنيته وتحالفاته ستعفيه من السنن. لكن السفينة المتقدمة لا تلغي قانون الغرق إذا فتحت في جسدها النقوب.

سنن الله لا تحابي من يحفظ أسماءها ويخالف شروطها. قد يكثر قوم من الحديث عن النصر، لكنهم إذا هجروا العدل والأمانة والإعداد لم تنقلب السنن من أجل شعاراتهم. فالسنن تعمل في الواقع، لا في الأمنيات.

﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾ (٤٤)

﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾.

القرآن لا يريد من الإنسان أن يعيش سجين حاضره؛ يأمره أن يسير في الأرض، وأن يقرأ ما تركه السابقون. فالأرض ليست مكاناً للسكن وحده، بل سجلاً مفتوحاً للتاريخ.

تحت كل حضارة قائمة طبقات من حضارات مضت، وفي كل طريق تمر به آثار أقدام لم يعد أصحابها هنا. السير في الأرض يخفف غرور الحاضر؛ لأنك ترى أن ما يظنه الناس جديداً قد تكرر في صور أخرى: قوة تطغى، وثروة تفتن، وقوم يظنون أن ملكهم أبدي، ثم ينتهون إلى آثار.

﴿فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾

لم يقل: فينظروا كيف كانت بدايتهم؛ فالبدايات قد تكون براءة. انظروا إلى العاقبة، فهناك تظهر حقيقة الطريق. قد يبدأ الظلم بالتمكين وينتهي بالخراب، وتبدأ المعصية بلذة وتنتهي بحسرة، ويبدأ المكر بنجاح مؤقت ثم ينتهي إلى بوار.

العاقل لا يحكم على الفكرة من أول خطوة، بل يسأل: إلى أين تقود؟ فإن الطريق الذي يكسوه الورد عند بدايته قد ينتهي إلى نار، والطريق الشاق الذي تجرح حجارته القدم قد ينتهي إلى جنة.

﴿وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾.

الأمم الهالكة لم تكن ضعيفة جاهلة بالأسباب. كانت أشد قوة من المخاطبين؛ أقوى أجسادًا، وأعظم عمرًا، وأرسخ تمكينًا. لكن القوة التي لم تعرف حدودها تحولت إلى سبب من أسباب عمائها.

ظنت أن ما مكنها من السيطرة على الأشياء سيمكنها من الإفلات من الله. قاست قدرة الخالق بموازين صراعها مع المخلوقين، وغفلت عن أن ما تتباهى به من قوة هو عطية منه، يستطيع أن يجعلها عليها لا لها.

وذكر قوة السابقين يضرب وهماً يتكرر: نحن أكثر تقدمًا، إذن نحن أكثر أمانًا. لكن التقدم في الوسائل لا يعني التقدم في الحكمة، وقد تمنح التقنية الإنسان قوة

أكبر بينما يبقى ضميره أصغر؛ فتتضخم قدرته على الإفساد دون أن تتضخم قدرته على ضبط نفسه.

﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾.

لا تهرب منه مجرة لبعدها، ولا ذرة لصغرها، ولا طاغية لتحصنه، ولا سر لحفائه. كل شيء داخل ملكه وعلمه وقدرته.

والعجز لا يلحقه سبحانه من جهة القوة ولا من جهة العلم؛ لذلك ختم بقوله: ﴿إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾. يعلم موضع كل شيء، ويقدر عليه. فربما يقدر المخلوق ولا يعلم أين عدوه، أو يعلم ولا يملك الوصول إليه؛ أما الله فاجتمع له كمال العلم وكمال القدرة.

يعلم ما يمكرون، ويقدر أن يبطل مكرهم. يعلم المظلوم في ظلمة سجنه، ويقدر أن ينصره. يعلم قلبك حين يعجز لسانك عن شرح ألمه، ويقدر أن يبدل حاله.

إذا اجتمع العلم والقدرة فيمن هو رحيم حكيم، فلماذا يضيع القلب عند أبواب العاجزين؟

﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا
مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَاءَ
أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا﴾ (٤٥)

هذه خاتمة السورة؛ خاتمة تجمع رهبة العدل وسعة
الحلم، وتضع الإنسان بين ما كسبه وبين الأجل الذي
لا يزال يمنحه فرصة.

﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا﴾.

المؤاخظة هي العقوبة على الذنب. ولو عامل الله الناس
فوراً بجميع ما كسبوا، بلا إمهال ولا عفو ولا ستر،
لتغير وجه الأرض.

وتأمل كلمة ﴿كَسَبُوا﴾؛ فالمعاصي ليست مفروضة
عليهم من خارجهم، وإنما كسبوها باختياراتهم. منحهم
الله العقل، وأوضح السبيل، وأرسل النذر، ثم ترك لهم
مساحة الإرادة؛ فمن أخطأ فقد كتب بيده شيئاً من
حسابه.

﴿مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ﴾.

الضمير يعود إلى الأرض؛ أي ما ترك على ظهر الأرض من دابة. فآثار فساد الإنسان لا تقف عنده، بل تمتد إلى العالم من حوله، وتنتشر عواقب الذنوب في البر والبحر.

ولو نزل العقاب العام بما يستحق الناس، لهلكت الدواب معهم. فالإنسان ليس كائنًا معزولاً؛ صلاحه يفيض على البيئة والحياة، وفساده يجر الأذى إلى مخلوقات لم تشارك في جرمه.

وكم في هذه الآية من كسر للعجب! نحن لا نبقي لأننا بلغنا من الصلاح ما نستحق به البقاء، بل لأن حلم الله أوسع من ذنوبنا. كل صباح يطلع ليس شهادة ببراءة العالم، بل شاهداً على الإمهال.

لو كشف للإنسان مقدار ما ستر الله من تقصيره، لاستحيا أن يتحدث عن استحقاقه، ولعرف أن كثيراً مما يسميه نجاحاً جرى فوق أرض يحملها الحلم الإلهي.

﴿وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾.

لكن رحمة الله وحكمته اقتضتا التأخير. والأجل مسمى؛ محدد في علمه، لا يتقدم ولا يتأخر. الإمهال ليس فوضى، والزمن الممنوح ليس بلا نهاية.

إن الله لا يعاجلك بعد الذنب لأنه يريد أن يفتح لك باب الرجوع، لا لأنه رضي بما فعلت. والفارق عظيم بين من يفهم الإمهال فرصةً فيتوب، ومن يفهمه أماناً فيتمادى.

كل لحظة بين الذنب والعقوبة مساحة رحمة. تستطيع أن تحول بها السيئة إلى توبة، والمظلمة إلى رد حق، والقسوة إلى ندم، والبعد إلى عودة. لكن المساحة تضيق بصمت، لأن الأجل يتحرك وإن لم تسمع خطواته.

والأجل المسمى قد يكون أجل الفرد بالموت، وقد يكون أجل الحساب والجزاء، وقد تدخل فيه آجال الأمم التي قدرها الله. لكل إنسان ساعة، ولكل حضارة ساعة، ولكل مرحلة من التاريخ موعد تغلق فيه صفحاتها.

﴿فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ﴾.

لم يقل: إن جاء، بل ﴿إِذَا﴾؛ لأن مجيئه يقين. نحن لا نعرف متى، لكن جهلنا بالموعد لا يغير ثبوت اللقاء. وقد يكون أخطر ما في الأجل أنه لا يرسل إلى الإنسان موعدًا يختاره؛ يأتي وهو يخطط لما بعده، ويجمع لما لن يبلغه، ويؤجل التوبة إلى زمن لم يُكتب له.

﴿فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا﴾.

تنتهي السورة باسم البصير. بدأ كتاب الوجود بـ﴿فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، وينتهي ببصر الله بالعباد. الذي فطر الكون لم يغيب عن تفاصيل من خلقهم فيه؛ رآهم وهم يؤمنون ويكفرون، ويشكرون ويجحدون، ويسابقون بالخيرات ويظلمون أنفسهم.

هو بصير بمن تاب قبل الأجل، وبمن سوّف، وبمن أخفى طاعة، وبمن زيّن باطله، وبمن ظلم ولم يجد من يصدقه. بصير لا يختلط عليه صوت بصوت، ولا قلب بقلب، ولا دمة بأخرى.

وفي ختم الآية بالعباد، لا بالناس فقط، تذكير بالحقيقة التي حاول المستكبر الفرار منها: الجميع عباده. مؤمنهم وكافرهم، مطيعهم وعاصيهم، لا يخرج أحد عن ملكه، وإن خرج عن طاعته.

وبصر الله ليس علمًا ساكنًا؛ بل يترتب عليه الجزاء العادل. سيرى كل إنسان عمله محفوظًا، لا كما رواه للناس، بل كما وقع في حقيقته؛ بنيته ودافعه وأثره.

خاتمة الرحلة

حين يعود كل شيء إلى فاطره

هكذا تنتهي سورة فاطر بعد خمس وأربعين آية، لكن أثرها لا ينتهي عند آخر لفظ فيها. لقد بدأت بالحمد، ورفعت أعيننا إلى السماوات والأرض، وأرتنا الملائكة ذوي الأجنحة، ثم ردتنا إلى أبواب الرحمة التي لا يستطيع أحد إمساكها إذا فتحها الله.

قالت لنا منذ البداية إن الخالق واحد، والفتاح واحد، والرازق واحد؛ فلا نوزع قلوبنا على أبواب لا تملك من قطمير. ثم كشفت عدونا الذي يزين الطريق ويخفي النار، وحذرتنا من دنيا تعرض أول المشهد وتستتر نهايته.

سأقت الرياح أمام أبصارنا، وأثارت السحاب، وأحيت البلد الميت؛ لنعرف أن النشور ليس أبعد على الله من اخضرار التراب. ثم أخذتنا إلى البحرين المختلفين، وإلى السفن التي تشق الماء، وإلى الليل يدخل في النهار، والشمس والقمر يجريان إلى أجل مسمى.

وحين كاد الإنسان يغتر بما يرى، واجهته الآية بحقيقته الكبرى:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ﴾.

هذه هي الجملة التي تعيد الكون كله إلى توازنه. الإنسان فقير وإن ملك، وضعيف وإن حكم، وعابر وإن بنى. والله هو الغني الحميد؛ لا تزيده طاعة، ولا تنقصه معصية، لكنه يفتح رحمته لعباده ويقيم عليهم حجته.

ثم وضعت السورة أمامنا أزواج المعنى التي لا تستوي: الأعمى والبصير، والظلمات والنور، والظل والحرور، والأحياء والأموات. ليس العالم ساحة رمادية تنعدم فيها الحدود، بل فيه حق وباطل، وحياة قلب وموت قلب، ونور يكشف وظلمة تحجب.

وأدخلتنا السورة معرض الألوان: ثمرات مختلفة، وجبال بيض وحمرة وغرايب سود، وناس ودواب وأنعام تتنوع صورها. لكنها لم تتركنا عند جمال اللون؛ بل نقلتنا من الدهشة إلى الخشية:

﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾.

فليست غاية العلم أن تكثر الأسماء في الذاكرة، بل أن يكبر الله في القلب. وليست المعرفة القرآنية معلومات ترفع صاحبها فوق الناس، بل نورًا يخفض جناحه لربه.

ثم سلّمنا السورة ميراث الكتاب، وأرتنا الوارثين: ظالمًا لنفسه، ومقتصدًا، وسابقًا بالخيرات بإذن الله. وفي هذا التقسيم مرآة لا تسمح للقارئ أن يبقى متفرجًا؛ لا بد أن يسأل: أين أنا من كتاب الله؟ أحمله اسمًا؟ أؤدي حدّه الأدنى؟ أم أسابق به إلى الخير؟

ثم فتحت الجنة، فسمعنا فيها أجمل اعتراف يصدر بعد أطول رحلة:

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ﴾.

الحزن الذي رافق الإنسان منذ أول فقد، والخوف الذي سكن أفراده، والتعب الذي تراكم في جسده؛ كل ذلك يذهب. لا تخفيفًا مؤقتًا، بل ذهابًا بلا عودة. ويحل الله عباده دار المقامة من فضله، فلا يمسهم نصب ولا لغوب.

وفي الجهة الأخرى سمعنا الصرخة:

﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾.

بين الحمد والصرخة يقف عمر الإنسان. إن عاشه مع الله انتهى إلى الحمد، وإن أضاعه في الغرور انتهى إلى طلب العودة حين لا عودة.

ثم رفعت السورة أعيننا مرة أخيرة إلى السماء: الله يمسكها أن تزول. لكنها لم تتركنا أمام القوة وحدها، بل قالت: ﴿إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾. فالسماء ثابتة فوقنا بقدرته، والعالم باقٍ رغم خطايانا بحلمه.

وفي آخر آية نعرف سر بقائنا: لو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهر الأرض من دابةٍ. لسنا أحياء لأننا أدينا حق الحياة كاملاً، بل لأن الحليم أمهلنا. وكل يوم جديد ليس تكراراً لليوم الماضي، بل تمديد للفرصة.

إن الخيط الجامع للسورة هو ردُّ الوجود كلّهِ إلى مصدره: الخلق إلى الفاطر، والرحمة إلى الفاتح، والرزق إلى المالك، والعزة إلى العزيز، والعلم إلى الخبير، والهداية إلى الله، والكتاب إلى الوحي، والعمل

إلى التوفيق، والجنة إلى الفضل، وبقاء العالم إلى
الحلم، ثم رجوع الخلائق إلى البصير.

وسورة فاطر، بهذا المعنى، تحرر الإنسان من وهم
الاستقلال. تخبره أن الرياح لا تستقل، والسحب لا
تستقل، والأرض لا تستقل، والشمس لا تستقل،
والأرحام لا تستقل، والأعمار لا تستقل، والقلوب لا
تهتدي مستقلة عن فضل الله.

لكنها لا تسلب الإنسان مسؤوليته؛ بل تضعه بين
افتقاره واختياره. هو فقير إلى الله، ومع ذلك سيُسأل
عما كسب. يحتاج إلى التوفيق، ومع ذلك عليه أن
يسابق. لا يملك الهداية لنفسه استقلالاً، لكنه مأمور أن
يفتح لها أبوابها وأن يطرق باب الله طالباً إياها.

وحين تستقر هذه السورة في القلب، يتغير وجه العالم:
لا تعود الرياح مجرد هواء، ولا الجبال صخوراً
صامتة، ولا اختلاف الألوان مشهداً جمالياً عابراً، ولا
العمر عدداً من السنوات. يصبح كل شيء رسالةً من
الفاطر إلى الإنسان:

أَنْ انْظُرْ، وَاَعْرِفْ، وَاخْشَعْ، وَاَعْمَلْ؛ فَإِنَّكَ فَقِيرٌ، وَإِنْ رَبُّكَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ. وَإِنَّكَ عَابِرٌ، وَإِنْ أَمَامَكَ دَارُ الْمَقَامَةِ. وَإِنَّكَ مُمْهَلٌ، وَإِنْ الْأَجَلَ مَسْمَى.

فَطُوبَى لِمَنْ قَرَأَ سُورَةَ فَاطِرٍ، ثُمَّ أَدْرَكَ أَنَّ السَّمَاءَ الَّتِي يُمْسِكُهَا اللَّهُ فَوْقَهُ لَيْسَتْ أَعْظَمُ مِنَ الرَّحْمَةِ الَّتِي يَفْتَحُهَا لَهُ، وَأَنَّ الْأَرْضَ الْمَيِّتَةَ الَّتِي يَحْيِيهَا بِالْمَاءِ لَيْسَتْ بِأَبْعَدَ عَنْ قُدْرَتِهِ مِنْ قَلْبِهِ إِذَا عَادَ إِلَيْهِ.

وَالْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، الَّذِي أَوْدَعَ فِي الْكَوْنِ دَلَائِلَ مَعْرِفَتِهِ، وَفِي الْقُرْآنِ نُورَ هِدَايَتِهِ، وَفِي النَّوْبَةِ طَرِيقَ مَغْفَرَتِهِ، وَفِي الْجَنَّةِ دَارَ كَرَامَتِهِ.

وَبِهَذَا تَمَّتِ التَّأْمَلَاتُ فِي آيَاتِ سُورَةِ فَاطِرٍ جَمِيعُهَا، مِنْ الْآيَةِ ١ إِلَى الْآيَةِ ٤٥، بِحَمْدِ اللَّهِ وَحْدِهِ.